

### كتاب الفقر والزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تسبح له الرمال، وتسجد له الظلال، وتندكدك من هيبته الجبال، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضياؤه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال، ما استقبح دون مبادي إشرافه كل حسن وجمال، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستقلال، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميمس وتختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شواء عجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال، وهي متلففة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، وقد نصبت حباثلها في مدارج الرجال، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال، ثم لا تجترىء معهم بالخلف في مواعيد الوصال، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال، زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال، واثقين منها بوصول ليس دونه انفصال، ومشاهدة أبدية لا يعتربها فناء ولا زوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل.

أما بعد : فإنّ الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل، وبمكرها زل من زل، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات وأس القربات. وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربح المهلكات، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات، فلا مطمع في النجاة بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزواتها عن العبد ويسمى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهداً، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة. ونحن الآن نذكر حقيقة الفقير والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه، ونبدأ بذكر الفقر فنقول:

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقير مطلقاً، وبيان خصوص فضيلة الفقراء، وبيان فضيلة الفقر على الغني، وبيان أدب الفقير في فقره، وبيان أدبه في قبوله العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغني المحرّم للسؤال، وبيان أحوال السائلين، والله الموفق بلطفه وكرمه.

ببإت حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأسبابه:

اعلم أنّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقراً، وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً، وإذا فهمت هذا لم تشك في أنّ كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجود استفاد من فضل الله تعالى وجوده، فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغني المطلق، ولا يتصوّر أن يكون مثل الموجود إلا واحداً، فليس في الوجود إلا غني واحد، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدّوا وجودهم بالدوام، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعَزِيزُ وَأَشَدُّ الْفُقَرَاءِ﴾ [محمد: ٣٨] هذا معنى الفقر مطلقاً، ولكننا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص، وإلا فقير العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر؛ لأنّ حاجاته لا حصر لها. ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط، فنقول: كل فاقد للمال فإننا نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجاً إليه في حقه، ثم يتصوّر أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر. ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لتتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها:

**الحالة الأولى:** وهي العليا. أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شره وشغله وهو الزهد، واسم صاحبه الزاهد.

**الثانية:** أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

**الثالثة:** أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه صفواً عفواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعاً، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة.

**الرابعة:** أن يكون تركه الطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص.

**الخامسة:** أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعماري الفاقد للشوب، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة، فهذه خمسة أحوال: أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصوّر ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه، ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده؛ فإن وجدته لم يفرح به ولم يتأذى، وإن فقده فكذلك، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذ

أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحدافيرها في يده وخزائنه لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعًا، وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد، فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقاءه، فهو إذن فقير من وجه، وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضًا، فإنه ليس يتأذى به ليجتاح إلى إخراجه، وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءه. وليس فاقداً له ليجتاح إلى الدخول في يديه فغناه إلى العموم أميل، فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب، وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان، ولكننا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنيًا بل مستغنيًا، ليبقى الغني اسمًا لمن له الغنى المطلق عن كل شيء. وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجودًا أو عدمًا فلم يستغن عن أشياء آخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه، فإن القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغني عنه حرّ، والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق، والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة؛ لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن، فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقًا عليه مع هذا الكمال إلا مجازًا.

واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقرّبين، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانًا، إذ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، وهذا لأن الكاره للعالم مشغول بالعالم، كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى يكون البعد حجابًا، فإنه أقرب إليك من جبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجابًا بينك وبينه، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولًا بنفسك وبشهووات نفسك فكذلك لا تزال محجوبًا عنه، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى، والمشغول ببغض نفسه أيضًا مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكرهه حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه، ولو استفرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه، فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب

لبفضه شرك فيه ونقص، ولكن أحدهما أخف من الآخر، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضًا وحبًا، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضًا بغض وحب في حالة واحدة؛ فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب، إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبديل بالشهود؛ فالكمال له مرتقب؛ لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها، فهما سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها، وليس محمودًا بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها، فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه، بل الدنيا عائق عن الله تعالى، ولا وصول إليه إلا يدفع العائق، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة؛ فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج، فإذا قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني، بل الكمال في حق المال أن يحتوي عندك المال والماء، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر، ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قليلك مشغولًا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد، فهكذا ينبغي أن يكون المال؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حيًا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء، على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها، قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية: قد زاده في الدنيا ما غلبه من أخذها، فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان.

فإن قلت: فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من الماء ونفروا منه كل النفار؟ فأقول: كما

هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه، لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها (١)، إذ كان يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر، وما نقل عنهم من امتناع فيما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخذعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات، وهذا حال الضعفاء، فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال؛ وهذا حكم جميع الخلق؛ لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء، وإما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقعدوا به في الترك؛ إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا، كما يفتر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون، والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء، فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحرص. وأما المضطرّ فيتصور في حقه أيضاً الزهد والرضى والقناعة ودرجة تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال، واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة. أما تسمية المستغني فقيراً فلا وجه لها بهذا المعنى؛ بل إن سمي فقيراً فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجاً إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها؛ فإنه أحق باسم العبد من الغافلين. وإن كان اسم العبد عامّاً للخلق فكذلك اسم الفقير عام، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير، فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْفَقْرِ» (٢)، وقوله عليه السلام: «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا» (٣)، لا يناقض قوله ﷺ: «أَخْبِنِي

(١) صحيح: حديث: إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف. وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقا مجزوماً به من حديث أنس: أتى النبي ﷺ بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فقلما كان يرى أحداً إلا أعطاه. ووصله عمر بن محمد البحيري في صحيحه من هذا الوجه. وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف: «قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدمه... الحديث» [البخاري: ٣١٥٨، ومسلم: ٢٩٦١]، ولهما من حديث جابر: «لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثاً» [البخاري: ٢٢٩٦، ومسلم: ٢٣١٤]، فلم يقدم حتى توفي رسول الله ﷺ، فأمر أبو بكر منادياً فنادى: من كان له على رسول الله ﷺ عدة أودين فليأتنا، فقلت: إن النبي ﷺ وعدني، فحثالي ثلاثاً. [أخرجه البخاري تعليقا عقب حديث: ٤٢١، ولم أره موصولاً].

(٢) صحيح: حديث «أعوذ بك من الفقر». تقدم في الأذكار والدعوات. [البخاري: ٦٣٦٨، ومسلم: ٥٨٩ من عائشة].

(٣) ضعيف: حديث «كاد الفقر أن يكون كفراً». تقدم في ذم الحسد. [انظر ضعيف الجامع: ٤١٤٨].

مِسْكِينًا وَأَمْتِنِي مِسْكِينًا»<sup>(١)</sup>، إذ فقر المضطرّ هو الذي استعاذ منه، والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء.

### بيان فضيلة الفقر مطلقاً:

أما من الآيات: فيدل عليه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُمْرًا إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٨] الآية. وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر.

وأما الأخبار في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى: روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟» فقالوا: «موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله». فقال: «نعم الرجل هذا وليس به» قالوا: «فمن خير الناس يا رسول الله؟» قال: «فَقِيرٌ يُعْطِي جِهْدَهُ»<sup>(٢)</sup>، وقال لبلال: «الْقَى اللَّهُ فَقِيرًا وَلَا تَلْقَهُ غَنِيًّا»<sup>(٣)</sup> وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ»<sup>(٤)</sup>، وفي الخبر المشهور: «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ»<sup>(٥)</sup>، وفي حديث آخر «بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا»<sup>(٦)</sup>، أي أربعين سنة، فيكون المراد به تقدير تقدّم الفقير الحرّيص على الغني الحرّيص، والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدّم الفقير الزاهد على الغني الراغب، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتاً بين الفقراء في درجاتهم، وكان الفقير الحرّيص على درجة من خمس وعشرين درجة

(١) حسن لغيره: حديث «اللهم أحيني مسكيناً وأمّنتي مسكيناً». رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٥٢، وابن ماجه: ٤١٢٦، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٩٢].

(٢) موضوع: حديث ابن عمر أنه ﷺ قال لأصحابه: أي الناس خير؟ فقالوا: موسر من المال. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له. [انظر السلسلة الضعيفة: ٣٥٦٨].

(٣) ضعيف: حديث: قال لبلال «القي الله فقيراً ولا تلقه غنياً». أخرجه الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال. ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ «مت فقيراً ولا تمت غنياً» وكلاهما ضعيف. [انظر ضعيف الترغيب: ٥٤٣].

(٤) ضعيف: حديث «إن يحب الفقير المتعفف أبا العيال». أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم. [ابن ماجه: ٤١٢١، وانظر السلسلة الضعيفة: ٥١].

(٥) صحيح: حديث «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٥٤، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٨٩].

(٦) صحيح: حديث: دخولهم قبلهم بأربعين خريفاً. أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، إلا أنه قال: فقراء المهاجرين، والترمذي من حديث جابر وأنس. [مسلم: ٢٩٧٩، والترمذي: ٢٣٥٥، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٨٦].

من الفقير الزاهد، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة، ولا تظن أن تقدير رسول الله ﷺ يجري على لسانه جزافاً وبالاتفاق، بل لا يستنطق إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وهذا كقوله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة»<sup>(١)</sup>، فإنه تقدير تحقيق لا محالة، لكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين، فأما بالتحقيق فلا، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ﷺ ويفارق به غيره، وهو يختص بأنواع من الخواص:

**أحدها:** أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة، لا كما يعلمه غيره بل مخالفاً له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف.

**والثاني:** أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى.

**والثالث:** أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات.

**والرابع:** أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين، ويمكننا أيضاً أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءاً واحداً من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندري تحقيقاً أنه الذي أراده رسول الله ﷺ أم لا، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها، وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير، وكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلاً على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به، والغرض التنبيه على منهج التقدير في أمثال هذه الأمور، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله ﷺ على سبيل الاتفاق، وحاشا منصب النبوة عن ذلك ولنرجع إلى نقل الأخبار فقد قال ﷺ أيضاً: «خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فُقَرَاؤُهَا وَأَسْرَعُهَا تَصْجُعًا فِي الْجَنَّةِ

(١) صحيح: حديث «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد، ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ «رؤيا المؤمن جزء... الحديث» وقد تقدم. [البخاري: ٦٩٨٩ عن أبي سعيد، والبخاري: ٦٩٨٨، ومسلم: ٢٢٦٣ عن أبي هريرة، والبخاري: ٦٩٨٣، ومسلم: ٢٢٦٤ عن أنس، والبخاري: ٦٩٨٧، ومسلم: ٢٢٦٤ عن عبادة بن الصامت].

ضُعْفَاؤُهَا»<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: «إِنَّ لِي حِرْفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فَمَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحْبَبَنِي وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي: الْفَقْرُ وَالْجِهَادُ»<sup>(٢)</sup>، وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد. إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: «أَتُحِبُّ أَنْ أَجْعَلَ هَذِهِ الْجِبَالَ ذَهَبًا»<sup>(٣)</sup> وتكون معك أينما كنت، فأطرق رسول الله ﷺ ثم قال: «يَا جِبْرِيْلُ، إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ مَنْ لَا دَارَ لَهُ وَمَالٌ مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ» فقال له جبريل: يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت.

وروي أن المسيح مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة، فأيقظه وقال: يا نائم قم فاذاكر الله تعالى، فقال ما تريد مني؟ إنني قد تركت الدنيا لأهلها، فقال له قم إذن يا حبيبي. ومر موسى برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة، فقال: يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى أما علمت أنني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها.

وعن أبي رافع أنه قال: ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال: «قُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ أَسْلَفَنِي أَوْ بَعَنِي دَقِيقًا إِلَى هِلَالِ رَجَبٍ» قال فأتيته فقال: لا والله إلا برهن، فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: «أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لَأَدَيْتُ إِلَيْهِ، أَذْهَبَ بِيَدِي هَذَا إِلَيْهِ فَارْهَنَهُ، فَلَمَّا خَرَجْتُ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١]»<sup>(٤)</sup> الآية، وهذه الآية تعزية لرسول الله ﷺ عن الدنيا، وقال ﷺ: «الْفَقْرُ أَرْزِينٌ بِالْمُؤْمِنِ مِنَ الْعَذَارِ الْحَسَنِ عَلَىٰ خَدِّ الْفَرَسِ»<sup>(٥)</sup>، وقال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافَىٰ فِي جِسْمِهِ أَمِنًا فِي سَرِيهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمُهُ؛ فَكَأَنَّهَا حِيْرَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا»<sup>(٦)</sup>.

(١) لا أصل له: حديث «خير الأمة فقراؤها، وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها». لم أجد له أصلا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٦٧].

(٢) لا أصل له: حديث «إن لي حرفتين اثنتين». لم أجد له أصلا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٦٦].

(٣) ضعيف: حديث: أن جبريل نزل فقال: إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا. هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما» [الترمذي: ٢٣٤٧]، وانظر ضعيف الترفيب: [١٨٦٥] الحديث وقال: حسن ولأحمد من حديث عائشة «الدنيا دار من لا دار له... الحديث» [أحمد: ٢٣٨٩٨]، وانظر ضعيف الترفيب: [١٨٨٤] وقد تقدم في ذم الدنيا.

(٤) حديث أبي رافع: ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر. أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

(٥) ضعيف: حديث «الفرار من المؤمن من العذار الحسن على خد الفرس». رواه الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم، رواه ابن عدي في الكامل هكذا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٦٤].

(٦) حسن لغيره: حديث «من أصبح منكم معافى في جسمه». أخرجه الترمذي وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٤٦].

وقال كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين.

وقال عطاء الخراساني: مر نبي من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتاناً، فقال: بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء، ثم مرّ بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها. فقال النبي: يا رب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك، فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا العبيد عن منزلتيهما، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذلك من الهوان قال: رضيت يا رب.

وقال نبينا ﷺ: «اطْلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطْلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْأَغْنِيَاءَ وَالنِّسَاءَ» وفي لفظ آخر: «فَقُلْتُ أَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ؟ فَقِيلَ حَبَسَهُمُ الْجَدُّ» وفي حديث آخر: «فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ فَقُلْتُ مَا شَأْنُهُنَّ؟ فَقِيلَ شَغَلَهُنَّ الْأَخْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالرُّعْفَرَانُ»<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: «تُخَفُّةُ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا الْفَقْرُ»<sup>(٢)</sup>، وفي الخبر: «أَخْرَجُ الْأَنْبِيَاءَ دُخُولاً الْجَنَّةِ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِمَكَانٍ مُلْكِهِ وَأَخْرَجُوا أَصْحَابِي دُخُولاً الْجَنَّةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ لِأَجْلِ غِنَاهُ»<sup>(٣)</sup>، وفي حديث آخر: «رَأَيْتُهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ زَحْفًا»<sup>(٤)</sup>.

وقال المسبح: بشدة يدخل الغني الجنة.

وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ، فَإِذَا أَحَبَّهُ الْحُبُّ الْبَالِغُ افْتَنَاهُ قِيلَ: وَمَا افْتَنَاهُ؟ قَالَ: لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلًا وَلَا مَالًا»<sup>(٥)</sup>.

وفي الخبر: «إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مَقْبَلًا فَقُلْ مَرْحَبًا بِشَعَارِ الصَّالِحِينَ، وَإِذَا رَأَيْتَ الْغَنَى مَقْبَلًا فَقُلْ ذَنْبٌ عَجَلَتْ عَقُوبَتُهُ»<sup>(٦)</sup>.

وانظر صحيح الترغيب: [٨٣٣].

(١) ضعيف جداً: حديث «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء». تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره. [انظر ضعيف الترغيب: ١٢٥٥].

(٢) ضعيف: حديث «تخفة المؤمن في الدنيا فقره». رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به، ورواه أبو منصور أيضاً فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جداً. [انظر السلسلة الضعيفة: ٣٣٩٢].

(٣) حديث «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه». تقدم، وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد، وفيه نكارة.

(٤) حديث «رأيت» - يعني عبد الرحمن بن عوف - يدخل الجنة زحفاً. تقدم وهو ضعيف. [أحمد: ٢٤٣٢١].

(٥) حديث «إذا أحب الله عبدا ابتلاه». أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني.

(٦) حديث «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته».

أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال: قال رسول الله ﷺ «أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى... الحديث» فذكره بزيادة في أوله. ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف.

وقال موسى عليه السلام: يا رب من أجاؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير فقير؛ فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد، ويمكن أن يراد به الشديد الضر.

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه: إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء، وكان أحب الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يقال له يا مسكين. ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً يجيئون إليك ولا نجىء إليك ولا يجيئون، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذرّ وخباب بن الأرت وعمار ابن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجاؤهم النبي ﷺ إلى ذلك، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برائحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر؛ فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم، فأجاؤهم رسول الله ﷺ أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد؛ فنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَقْدِرْ عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف: ٢٨] يعني الفقراء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] يعني الأغنياء ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] يعني الأغنياء إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن سَأَلَ فَلْيُؤْمِن وَمَن سَأَلَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] (١) الآية .

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشرف قريش، فشق ذلك على النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿عَسَىٰ وَتَوَلَّىٰ ۖ أَن جَاءَهُ الْأُمِّيُّ ۚ وَمَا يُدْرِيك لَعَلَّهُ بَزَّحٌ ۚ أَوْ بَلَكَرٌ فَنَنْفَعُهُ ۚ أَلْذَرِّيُّ ۚ﴾ [مبس: ١-٤] يعني ابن أم مكتوم. ﴿أَمَّا مِنِ اسْتَعْفَىٰ ۚ فَاتَّ لِمَ تَصَنَّأٰ﴾ [مبس: ٥-٦] (٢) يعني هذا الشريف.

وعن النبي ﷺ أنه قال: ﴿يُؤْتَىٰ بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُعْتَذِرُ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ كَمَا يُعْتَذِرُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ: وَعَرَّبِي وَجَلَّكِي مَا زَوَيْتُ الدُّنْيَا عَنْكَ لِيَهْوَانِكَ عَلَيَّ وَلَكِن لِّمَا أُعْدِدْتُ لَكَ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْفَضِيلَةِ، أَخْرَجَ يَا عَبْدِي إِلَىٰ هَذِهِ الصُّفُوفِ، فَمَنْ أَطْعَمَكَ فِيهَا أَوْ كَسَاكَ فِيهَا بِذَلِكَ تُرِيدُ وَجْهِي فَخُذْ بِيَدِهِ فَهُوَ لَكَ، وَالتَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ فَيَتَخَلَّلُ الصُّفُوفِ وَيَنْظُرُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ﴾ (٣).

(١) صحيح: حديث: قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً يجيئون إليك ولا نجىء، ونجىء إليك ولا يجيئون. تقدم من حديث خباب، وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا، وهذه الزيادة من حديث سلمان. [ابن ماجه: ٤١٢٧، وانظر صحيح ابن ماجه].

(٢) صحيح: حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشرف قريش ونزول قوله تعالى ﴿عَسَىٰ وَتَوَلَّىٰ ۖ أَن جَاءَهُ الْأُمِّيُّ ۚ﴾ [مبس: ١] أخرجه الترمذي من حديث عائشة وقال غريب. قلت: ورجاله رجال الصحيح. [الترمذي: ٣٣٣١، وانظر صحيح الترمذي].

(٣) حديث ﴿يُؤْتَىٰ بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُعْتَذِرُ اللَّهُ إِلَيْهِ كَمَا يُعْتَذِرُ الرَّجُلُ إِلَىٰ الرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا. أخرجه أبو الشيخ في

وقال عليه السلام: «أَكْثَرُوْا مَعْرِفَةَ الْفُقَرَاءِ وَاتَّخِذُوا عِنْدَهُمُ الْيَادِي فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً» قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قِيلَ لَهُمْ انظُرُوا مَنْ أَطْعَمَكُمْ كِسْرَةً أَوْ سَقَاكُمْ شَرْبَةً أَوْ كَسَاكُمْ ثَوْبًا فَخَذُوا بِيَدِهِ ثُمَّ امْضُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ حَرَكَةَ أَمَامِي فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا بِلَالٌ، وَنَظَرْتُ فِي أَعْلَاهَا فَإِذَا فُقَرَاءُ أُمَّتِي وَأَوْلَادُهُمْ، وَنَظَرْتُ فِي أَسْفَلِهَا فَإِذَا فِيهِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالنِّسَاءِ قَلِيلٌ؛ فَقُلْتُ: يَا رَبِّ مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: أَمَّا النِّسَاءُ فَأَضْرَبُ بِهِنَّ الْأَحْمَرَانَ الذَّهَبَ وَالْحَرِيرَ، وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ فَاشْتَعَلُوا بِطُورِ الْحِسَابِ، وَتَفَقَّدْتُ أَصْحَابِي فَلَمْ أَرِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، ثُمَّ جَاءَنِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا خَلَّفَكَ عَنِّي؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى لَقِيتُ الْمُشَشِيْبَاتِ وَظَنَنْتُ أَنِّي لَا أَرَاكَ، فَقُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَحَاسِبُ بِعَالِي»<sup>(٢)</sup>.

فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة<sup>(٣)</sup>، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا»<sup>(٤)</sup>، ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحد. ودخل رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير له شيئاً فقال: «لَوْ قَسِمَ نُورُ هَذَا عَلَيَّ أَهْلِ الْأَرْضِ لَوَسِعَتْهُمْ»<sup>(٥)</sup>.

وقال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمُلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: كُلُّ ضَعِيفٍ

كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا مني أحبائي، فتقول الملائكة: ومن أحبائوك؟ فيقول: فقراء المسلمين، فيدونون منه فيقول: أما إنني لم أزو الدنيا عنكم لهران كان بكم علي ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم، فتمنوا علي ما شئتم اليوم... الحديث» دون آخر الحديث، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية، وسأيت في الحديث الذي بعده.

(١) موضوع: حديث «أَكْثَرُوْا مَعْرِفَةَ الْفُقَرَاءِ وَاتَّخِذُوا عِنْدَهُمُ الْيَادِي فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً». أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف «اتخذوا عند الفقراء أيادي، فإن لهم دولة يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: سيروا إلى الفقراء، فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه في الدنيا». [انظر ضميم الجامع: ٩٤ مختصراً].

(٢) منكر جداً: حديث «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ حَرَكَةَ أَمَامِي، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا بِلَالٌ، وَنَظَرْتُ إِلَى أَعْلَاهَا فَإِذَا فُقَرَاءُ أُمَّتِي وَأَوْلَادُهُمْ». أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه، وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر. [الحديث انظر السلسلة الضعيفة: ٥٣٤٦، وأما قصة بلال فعند البخاري: ١١٤٩، ومسلم: ٢٤٥٨ عن أبي هريرة].

(٣) صحيح: حديث: إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة. رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد، قال الترمذي: حسن صحيح. [أبو داود: ٤٦٤٩، والترمذي: ٣٧٤٧، وابن ماجه: ١٣٤، وانظر السلسلة الصحيحة: ٨٧٥].

(٤) صحيح: حديث «إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا». متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم. [البخاري: ٢٣٨٨، ومسلم: ٩٩٠].

(٥) حديث: دخل على رجل فقير ولم ير له شيئاً فقال «لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم». لم أجده.

مُسْتَضْعَفٍ أَغْبَرَ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَمِهِ» (١).

وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: «يا عمران، إنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنزِلَةً وَجَاهًا، فَهَلْ لَكَ فِي عِبَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ؟» قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة، ففرع الباب وقال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟» فقالت: ادخل يا رسول الله. قال: «أَنَا وَمَنْ مَعِيَ؟» قالت: ومن معك يا رسول الله؟ قال: «عِمْرَانُ» فقالت فاطمة: والذي بعثك بالحق نبياً ما علي إلا عباءة. قال: «اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا» وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: «شَدِّي عَلَى رَأْسِكَ» ثم أذنت له فدخل فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا ابْنَتَاهُ، كَيْفَ أَصْبَحْتِ؟» قالت: أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضرب بي الجوع، فيكي رسول الله ﷺ وقال: «لَا تَخْرَعِي يَا ابْنَتَاهُ فَوَاللَّهِ مَا ذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلَاثِ، وَإِنِّي لِأَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْكَ، وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لِأَطْعَمَنِي وَلَكِنْ آتَرْتُ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا» ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: «أُبَشِّرِي فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قالت: فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران؟ قال: «أَسَيِّئَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا، وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا، وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكِ، إِنَّكَ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا أَدَى فِيهَا وَلَا صَحْبٍ وَلَا نَصَبٍ» ثم قال لها: «أَفْنَعِي بِابْنِ عَمِّكَ فَوَاللَّهِ لَقَدْ زَوَّجْتُكَ سَيِّدًا فِي الدُّنْيَا وَسَيِّدًا فِي الْآخِرَةِ» (٢).

وروي عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَبْغَضَ النَّاسُ فَقَرَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عِمَارَةَ الدُّنْيَا وَتَكَالَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ رَمَاهُمْ اللَّهُ بِأَرْبَعِ حِصَالٍ: بِالْقَحْطِ مِنَ الزَّمَانِ، وَالْجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ، وَالْحِيَانَةِ مِنَ وِلَاةِ الْأَحْكَامِ، وَالشُّوْكَةَ مِنَ الْأَعْدَاءِ» (٣).

وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشدَّ حبسًا أو قال أشدَّ حسابًا من ذي الدرهم.

وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار، فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته: أحدث أمر؟ قال: أشدَّ من ذلك، ثم قال: أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه، ثم قام

(١) حديث «ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟». [البخاري: ٤٩١٨، ومسلم: ٢٨٥٣] متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقل «ملوك» وقد تقدم، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ «ألا أخبركم عن ملوك الجنة... الحديث» [ابن ماجه: ٤١١٥، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٦٠] دون قوله «أغبر أشعث».

(٢) حديث عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال «يا عمران، إنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنزِلَةً وَجَاهًا»، تقدم.

(٣) منكر: حديث «إِذَا أَبْغَضَ النَّاسُ فَقَرَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عِمَارَةَ الدُّنْيَا». أخرجه أبو منصور الدلمي بإسناد فيه جهالة، وهو منكر. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٢٨ بلفظ «علماءهم» بدلا من «فقراءهم» ولم آتف عليه بلفظ «فقراءهم»].

يصلي ويكي إلى الغداة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي غِمَارِهِمْ فَيُوَحِّدُ بِيَدِهِ فَيُشْتَرِجُ» (١).

وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرايه فلا يقال له أيها تريد. وقيل: جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له: تخط، لو كنت غنيا لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمن: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله.

وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاض بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً.

وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر.

وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرن أحداً لخلقان ثيابه فإن ربك ورببه واحد.

وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وفي الأخبار عن الكتب السالفة: أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام. احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب الدنيا عليك صباً.

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما، وإنّ درعها لمرقوع، وتقول لها الجارية: لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفطرين عليه وكانت صائمة، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، وكان قد أوصاها رسول الله ﷺ وقال: «إِنَّ أَرْدَبَ اللَّحُوقِ بِي فَعَلَيْكَ بِعَيْشِ الْفُقَرَاءِ، وَإِيَّاكَ وَمُجَالَسَةِ الْأَغْنِيَاءِ، وَلَا تَنْزَعِي دِرْعَكَ حَتَّى تَرَوْعِيهِ» (٢).

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل،

(١) حديث سعيد بن عامر «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام». وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كيبيا حزينا وفرقها، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال «تسعين عاما» وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه، وفي رواية له «بأربعين سنة» وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم. [حديث سعيد بن عامر، وحديث أبي هريرة عند الترمذي: ٢٣٥١، وانظر صحيح الترهيب: ٣١٨٩].

(٢) ضعيف، جداً: حديث: قال لعائشة «إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء». أخرجه الترمذي وقال غريب، والحاكم وصححه نحواً من حديثها، وقد تقدم. [الترمذي: ١٧٨٠، وانظر ضعيف الترهيب: ١٨٧٨].

فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبداً. رضي الله عنه.

بيانه فضيلة خصصت الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين:

قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به» (١) وقال ﷺ: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والأفلاء» (٢)، فالأول القانع وهذا الراضي، ويكاد يشعر هذا بمفهومه: أن الحرير لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثواباً كما سيأتي تحقيقه، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه، ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله، فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة» (٣).

وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال: «أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى» (٤). وقال ﷺ: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً» (٥).

وقال ﷺ: «ما من أحد غني ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا» (٦)، وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال: ومن هم؟

قال: الفقراء الصادقون. وقال ﷺ: «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً» (٧)، وقال ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: ومن هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدري، أدخلوهم الجنة. فيدخلونها ويأكلون»

(١) صحيح: حديث (طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به). رواه مسلم، وقد تقدم. [مسلم: ١٠٥٤]

(٢) حديث «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والأفلاء». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، وهو ضعيف جداً، فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث.

(٣) موضوع: حديث «إن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الجنة حب المساكين». رواه الدارقطني في غرائب مالك وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق، وابن عدي في الكامل، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٣٩٤].

(٤) ضعيف: حديث «أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي عن الله». لم أجده بهذا اللفظ، وتقدم عند ابن ماجه حديث «إن الله يحب الفقير المتعفف». [ابن ماجه: ٤١٢١، وانظر السلسلة الضعيفة: ٥١].

(٥) صحيح: حديث «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بلفظ «قوتاً» وقد تقدم. [بلفظ «كفافاً» عند مسلم: ١٠٥٥، وبلفظ «قوتاً» عند البخاري: ٦٤٦٠، ومسلم: ١٠٥٥].

(٦) ضعيف جداً: حديث «ما من أحد غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا». أخرجه ابن ماجه من حديث أنس، وقد تقدم. [ابن ماجه: ٤١٤٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٨١].

(٧) حديث «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً». لم أجده بهذا اللفظ.

وَيَسْرُبُونَ وَالتَّاسَ فِي الْجِسَابِ يَرَدُّوْنَ»<sup>(١)</sup> ، فهذا في القانع والراضي. وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأما الآثار: في الرضا والقناعة فكثيرة، ولا يخفى أنّ القناعة يضادها الطمع. وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الطمع فقر واليأس غنى، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم.

وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش: يا ابن آدم! قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: ما من أحد إلا وفي عقله نقص، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان؟ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجنني به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم. قال: فشبع؟ قال: نعم، قال: ثم نمت طيباً؟ قال: نعم. فقال إبراهيم في نفسه، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

ومرّ رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى. قال: من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة.

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزاً يابساً فيبيله بالماء ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

وقال الحسن رحمه الله: لعن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدّقوه، ثم قرأ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٦٦﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣].

وكان أبو ذرّ رضي الله عنه يوماً جالساً في الناس فأتته امرأته فقالت له: أتجلس بين هؤلاء؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة، فقال: يا هذه، إن بين أيدينا عقبة كثوداً لا ينجو منها إلا كل مخف، فرجعت وهي راضية.

وقال ذو النون رحمه الله: أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له.

(١) حديث «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

وقيل لبعض الحكماء : ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس  
محا في أيدي الناس.

وروي أنّ الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة: يا ابن آدم، لو كانت الدنيا  
كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك  
فأنا محسن إليك.

وقد قيل في القناعة:

واقنع ببيأس فإن العزّ في اليأس  
إنّ الغني من استغنى عن الثّاس

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس  
واستغن عن كل ذي قربي وذوي رحم  
وقد قيل في هذا المعنى أيضًا:

مقدّرًا أي باب منه يغلقه  
أغاديًا أم بها يسري فتطرّقه  
يا جامع المال أيّامًا تفرّقه  
ما المال مالك إلا يوم تنفقه  
أنّ الذي قسم الأرزاق يرزقه  
والوجه منه جديد ليس يخلقه  
لم يبق في ظلها هم يؤرّقه

يا جامعًا مانعًا والدهر يرمقه  
مفكرًا كيف تأتيه منيته  
جمعت مالًا فقل لي هل جمعت له  
المال عندك مخزون لوارثه  
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة  
فالعروض منه مصون ما يدنسه  
إن القناعة من يحلل بساحتها

بها نفضيلة الفقر على الفنى:

اعلم أنّ الناس قد اختلفوا في هذا، فذهب الجنيد والخوّاص والأكثرون إلى تفضيل الفقر.  
وقال ابن عطاء: الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر. ويقال إن الجنيد دعا على  
ابن عطاء لمخالفته إياه في هذه فأصابته محنة، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا أوجه  
التفاوت بين الصبر والشكر، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأنّ ذلك لا  
يمكن إلا بتفصيل.

فأما الفقر والغنى إذا أخذنا مطلقًا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر، ولا بدّ  
فيه من تفصيل فنقول إنما يتصوّر الشك في مقامين.

أحدهما: فقير صابر ليس بحريص على الطلب، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غني  
منفق ماله في الخيرات ليس حريصًا على إمساك المال.

والثاني: فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أنّ الفقير القانع أفضل من الغني  
الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص، أما الأوّل  
فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير؛ لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال، والغني

متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه، وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه، فأما الغني المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع، وقد يشهد له ما روي في الخبر: أن الفقراء شكوا إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد، فعلمهم كلمات في التسبيح، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه، فعاد الفقراء إلى رسول الله فأخبروه، فقال عليه السلام: **«ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»** <sup>(١)</sup>.

وقد استشهد ابن عطاء أيضًا لما سئل عن ذلك فقال: الغني أفضل لأنه وصف الحق، أما دليله الأول ففيه نظر؛ لأن الخبر قد ورد مفصلاً تفصيلاً يدل على خلاف ذلك: وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث الفقراء رسولاً إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رسول الفقراء إليك؛ فقال: **«مَرْحَبًا بِكَ وَيَمَنَ جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَوْمٌ أَحَبُّهُمْ»** قال: قالوا: يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه، ويعتصرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم؛ فقال النبي ﷺ: **«بَلِّغْ عَنِّي الْفُقَرَاءَ أَنْ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ خِصَالٍ لَيْسَتْ لِلْأَغْنِيَاءِ. أَمَا خِصْلَةٌ وَاحِدَةٌ: فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ عُرْفًا يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَى نُجُومِ السَّمَاءِ، لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَبِيٌّ فَقِيرٌ، أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ، أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ، وَالثَّانِيَةُ: يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالثَّلَاثَةُ: إِذَا قَالَ الْغَنِيُّ: شَيْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَقَالَ الْفَقِيرُ مِثْلَ ذَلِكَ لَمْ يَلْحَقِ الْغَنِيُّ بِالْفَقِيرِ وَلَوْ أَنْفَقَ فِيهَا عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا»** فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله ، فقالوا: رضينا رضينا <sup>(٢)</sup> فهذا يدل على أن قوله **«ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»** أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم.

وأما قوله: إن الغني وصف الحق، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال: أترى أن الله تعالى غني بالأسباب والأعراض، فانقطع ولم ينطق، وأجاب آخرون فقالوا: إن التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، ثم قالوا: بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات

(١) صحيح: حديث: شكى الفقراء إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات. متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه. [البخاري: ٨٤٣، ومسلم: ٥٩٥].

(٢) ضعيف: حديث زيد بن أسلم عن أنس: بعث الفقراء رسولاً إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رسول الفقراء إليك، فقال **«مَرْحَبًا بِكَ وَيَمَنَ جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَوْمٌ أَحَبُّهُمْ»**. لم أجده هكذا بهذا السياق، والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل الله به عليهم أغنياءهم، فقال **«يا معشر الفقراء ألا أبشركم إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام»** [إسناده ضعيف. [ابن ماجه: ٤١٢٤، وانظر ضعيف ابن ماجه].

العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا ﷺ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَصَصْتُهُ» (١).

وقال سهل : حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها، إذ كما يناقض قول من فضل الغني بأنه صفة الحق بالتكبر، فكذلك يناقض قول من ذم الغني لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى، والجهل والغفلة وصف العبد، وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم، فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر: وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عاتقة عن الوصول إلى الله تعالى، ولا الفقر مطلوبًا لعينه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه، وكم من غني لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته، وسبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن، والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب، والمحبة للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله، وربما يكون شغله في الفراق أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها؛ فإذا إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده، إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد؛ إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا يقدر، ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر. وهذه حلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الغد الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرًا.

ولما كان خطاب، الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر - والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر - زجر الشرع عن الغنى وذمه، وفضل الفقر ومدحه، حتى قال المسيح عليه السلام: لا

(١) صحيح : حديث «قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قصصته». تقدم في العلم وغيره. [مسلم: ٢٦٢٠].

تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم.

وقال بعض العلماء: تقلاب الأموال يمص حلاوة الإيمان.

وفي الخبر: «إن لكل أمة عجلاً وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم»<sup>(١)</sup>، وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضاً، واستواء المال والماء، والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء؛ ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة، إذ كان النبي ﷺ يقول للدنيا: «إِلَيْكَ عَنِّي»<sup>(٢)</sup>. إذ كانت تتمثل له بزينتها. وكان علي كرم الله وجهه يقول: يا صفراء غري غيري، ويا بيضاء غري غيري، وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه، وذلك هو الغنى المطلق، إذ قال عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ الْغِنَى مِنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»<sup>(٣)</sup>، وإذا كان ذلك بعيداً فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم، ويقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة؟ ويقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمناً بالله انصرف لا محالة إلى الله، إذ لا يتصور قلب فارغ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان، فالمتردد بينهما يقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها، فإذن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط، فإن تساويا فيه تساوت درجتهم، إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور، فإن الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال، ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقد، فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه، فإن وجد لقلبه إليه التفاتاً فليعلم أنه كان مغروراً، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه، فتحقق إذن أنه كان

(١) حديث «لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم». رواه أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة.

(٢) ضعيف: حديث: كان يقول للدنيا «إليك عني». رواه الحاكم مع اختلاف. وقد تقدم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩١٧].

(٣) صحيح: حديث «ليس الغني عن كثرة العرض إنما الغني غني النفس». متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [البخاري: ٦٤٤٦، ومسلم: ١٠٥١].

مغرورًا، وأنّ العشق كان مستكثًا في الفؤاد استكثان النار تحت الرماد، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء، وإذا كان ذلك محالًا أو بعيدًا فلنطلق القول بأنّ الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل؛ لأنّ علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف ويقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته، فإنّ حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمدكور، ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المدكور كتأثيرها في قلب مشغول، ولذلك قال بعض السلف: مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسّمك.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها، أفضل من عبادة غني ألف عام.

وهن الضحاك قال: من دخل السوق فرأى شيئًا يشتهيهِ فصبر واحتسب، كان خيرًا له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى.

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله: ادع الله لي فقد أضرب بي العيال فقال: إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت، فإنّ دعائك أفضل من دعائي. وكان يقول: مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء. وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء. وقد قال أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسي، والزهد فيما جاوز الكفاف. وإذا كان مثل الصّدّيق رضي الله عنه في كماله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أنّ فقد المال أصلح من وجوده هذا، مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالًا وينفق طيبًا، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره، ومن نوقش الحساب فقد عذب، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولًا بالحساب كما رآه رسول الله ﷺ، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما أحب أن لي حانوتًا على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأرباح، كل يوم خمسين دينارًا وأتصدّق بها في سبيل الله تعالى. قيل: وما تكره؟ قال: سوء الحساب، ولذلك قال سفيان رحمه الله: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء.

اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب. وما ذكره ابن عطاء من أن الغني وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح، ولكن إذا كان العبد غنيًا عن وجود المال وعدمه جميعًا بأن يستوي عنده كلاهما، فأما إذا كان غنيًا بوجوده ومفتقرًا إلى بقائه فلا يضاهي غناه غني الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى غني بذاته لا بما يتصوّر زواله والمال يتصوّر زواله بأن يسرق، وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيًا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غني يريد بقاء المال، وما ذكر من أن صفات الحق لا

تليق بالعبد غير صحيح، بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد، بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، وقد سمعت بعض المشايخ يقول: إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له: أي يكون له من كل واحد نصيب، وأما التكبر فلا يليق بالعبد، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيليق به. نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبس، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر، والمطيع أكبر من العاصي، والعالم أكبر من الجاهل، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات، وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة في حقه، إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقوف على الخاتمة، وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر؛ إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر، فلم يكن ذلك لائقاً به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصوّر أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كاملاً في حقه لأنه في صفات الله تعالى، ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصاناً في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تصوّر في العبد من صفات الله تعالى، فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء، فإذا لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة، أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلاً، فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغني الشاكر.

ولنفرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجدته، فله حالة الفقد وحالة الوجود، فأبي حالتيه أفضل؟ فنقول: ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بدّ منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل، لأنّ الفقر يشغله بالطلب، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل؛ والمكفي هو القادر، ولذلك قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَقَافَا» وقال ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً» أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بدّ منه، وإن كان المجلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين؛ فحالة الفقر أفضل وأصلح، لأنهما استويا في الحرص وحب المال، واستويا في أنّ كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين، واستويا في أنّ كل واحد منهما ليس يتعرّض

لمعصية بسبب الفقر والغنى؛ ولكن افترقا في أنّ الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغى الخلاص منه، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشدّ ركوتًا إلى الدنيا؛ فحاله أشدّ لا محالة؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا، وقد قال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَتْ فِي رُوعِي: أَحَبُّ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ»<sup>(١)</sup>، وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه؛ وكل من فارق محبوبًا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقد أنسه وأنس الواحد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وإن كان حريصًا عليها، فإذا قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين:

أحدهما: غني مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود والعدم، فيكون الوجود مزيدًا له؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم.

والثاني: الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفرًا، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصي؛ ولو مات جوعًا لكانت معاصيه أقل؛ فالأصلح له أن يموت جوعًا ولا يجد ما يضطر إليه أيضًا، فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر. ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه، وفي غني دونه في الحرص على حفظ المال، ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره، فهذا في محل النظر، والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده؛ والعلم عند الله تعالى فيه.

بيانات آداب الفقير في فقره:

اعلم أنّ للفقير آدابًا في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها.

فأما أدب باطنه: فإن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أنه لا يكون كارهًا فعل الله تعالى من حيث إنه فعله — وإن كان كارهًا للفقر — كالمحجوم يكون كارهًا للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهًا فعل الحجام ولا كارهًا للحجام، بل ربما يتقلد منه منة، فهذا أقل درجاته وهو واجب، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر، وهو معنى قوله عليه السلام: «يَا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَطَفَّرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَالْأَفْلَاءُ

(١) حسن لغيره: حديث «إن روح القدس نفث في روعي: أحب من أحببت فإنك مفارقه تقدم. [انظر صحيح الترغيب: ٦٢٧].

وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقير بل يكون راضياً به، وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعلمه بغوائل الغنى، ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى واثقاً به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف. وقد قال علي كرم الله وجهه: إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علاماته — إذا كان عقوبة — أن يسوء عليه خلقه ويعصي ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء، وهذا يدل أن كل فقير فليس بمحمود، بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بشمرته، إذ قيل: ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له: خذه على ثلاث أثلاث: شغل وهم وطول حساب.

وأما أدب ظاهره: فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ» وقال تعالى: ﴿يَسْتَبْهُهُ الْجَاهِلُ الْأَغْنِيَاءُ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقال سفيان: أفضل الأعمال التجمل عند المحنة. وقال بعضهم: ستر الفقر من كنوز البر.

وأما في أعماله فأدبه: أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، بل يتكبر عليه. قال علي كرم الله وجهه: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل، فهذه رتبة، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع. قال الثوري رحمه الله: إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مرء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص. وقال بعض العارفين: إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته، فإذا سكن إليهم ضل. وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء.

وأما أدبه في أفعاله: فألا يفتر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإن ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى. روى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «دِرْهَمٌ مِنَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ». قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «أَخْرَجَ رَجُلٌ مِنْ عَرَضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا، وَأَخْرَجَ رَجُلٌ دِرْهَمًا مِنْ دِرْهَمَيْنِ لَا يَمْلِكُ غَيْرَهُمَا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ، فَصَارَ صَاحِبَ الدَّرْهَمِ أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِ الْمِائَةِ أَلْفِ»<sup>(١)</sup>، وينبغي ألا يدخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات.

(١) حسن: حديث زيد بن أسلم «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم». أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً، وقد تقدم في الزكاة، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلًا. [النسائي: ٢٥٢٧، وانظر صحيح الترغيب: ٨٨٣].

**إحداها:** أن لا يدخر إلا ليومه وليلته وهي درجة الصديقين.  
**والثانية:** أن يدخر لأربعين يوماً فإن ما زاد عليه داخل في طول الأمل، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوماً. وهذه درجة المتقين.

**والثالثة:** أن يدخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين، ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية، فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته، وغنى الخصوص في أربعين يوماً، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة، وقد قسم النبي ﷺ نساءه على مثل هذه الأقسام. فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل، وبعضهن قوت أربعين يوماً وبعضهن يوماً وليلة وهو قسم عائشة وحفصة.

بيان آداب الفقير في تبرك العطاء اذا جاءه بغير سؤال:

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

أما نفس المال، فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب.

وأما غرض المعطي؛ فلا يخلو؛ إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة، والذكر والرياء والسمعة إما على التجرد، وإما ممزوجاً ببقية الأغراض.

**أما الأول:** وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> ولكن ينبغي ألا يكون فيها منة، فإن كان فيها منة فالأولى تركها، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض؛ فقد أهدي إلى رسول الله ﷺ سمن وأقط وكبش، فقبل السمن والأقط ورد الكبش<sup>(٢)</sup>، وكان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض<sup>(٣)</sup>، وقال ﷺ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَلَّا

(١) صحيح: حديث: أن قبول الهدية سنة. تقدم أنه ﷺ كان يقبل الهدية. [البخاري: ٢٥٨٥ عن عائشة، والبخاري: ٢٥٧٦، ومسلم: ١٠٧٧ عن أبي هريرة].

(٢) حديث: أهدي إلى النبي ﷺ سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش. أخرجه أحمد في أثناء حديث ليعلى بن مرة: وأهدت إليه كبشين وشيئا من سمن وأقط، فقال النبي ﷺ: «خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين» ورد عليها الآخرة وإسناده جيد. وقال وكيع: مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه. [أحمد: ١٧٠٩٨].

(٣) صحيح: حديث: كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض. رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة «وإيم الله لا أقبل بعد يومي هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا... الحديث» فيه محمد بن إسحاق ورواه بالنعنة. [أبو داود: ٣٥٣٧، والترمذي: ٣٩٤٦، وانظر صحيح أبي داود].

أَتَهَبَ إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ»<sup>(١)</sup>، وفعل هذا جماعة من التابعين. وجاءت إلى فتح الموصل صرة فيها خمسون درهماً فقال: حدثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَتَاهُ رِزْقٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ فَإِنَّمَا يَرُدُّهُ عَلَى اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>، ثم فتح الصرة فأخذ منها درهماً ورد سائرهما. وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضاً ولكن حمل إليه رجل كيساً ورزماً من رقيق ثياب خراسان، فرد ذلك وقال: من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق. وهذا يدل على أنّ أمر العالم والواعظ أشدّ في قبول العطاء. وقد كان الحسن يقبل من أصحابه. وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها. وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً يقول: اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإلا فلا، وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنّة على نفسه في قبول صديقه هديته، فإن علم أنه يمازجه منه فأخذه مباح ولكنه مكره عند الفقهاء الصادقين.

وقال بشر: ما سألت أحداً قط شيئاً إلا سرباً السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب. وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بماله وسأله أن يأكله فقال: أفرقه على الفقراء، فقال: ما أريد هذا. قال: ومتى أعيش حتى آكل هذا؟ قال: ما أريد أن تنفقه في الخل والبقل بل في الحلوات والطيبات، فقبل ذلك منه، فقال الخراساني: ما أجد في بغداد أمنٌ علي منك، فقال الجنيد: ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك.

الثاني: أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة؟ فإن اشبهه عليه فهو محل شبهة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة. وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارفاً لمعصية في السر يعلم أن المعطي لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصديق عليه، فهذا حرام

(١) صحيح: حديث «لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشي أو ثقفى أو أنصاري أو دوسي». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: روى من غير وجه عن أبي هريرة، قلت: ورجاله ثقات. [الترمذي: ٣٩٤٥]، وانظر صحيح الترمذي.

(٢) حديث عطاء مرسل «من أتاه رزق من غير مسألة فردّه فإنما يرد على الله عز وجل». لم أجده مرسل هكذا، ولأحمد وأبي يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني «من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يردّه فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه» [أحمد: ١٧٤٧٧]، وانظر صحيح الترمذي: [٨٤٨] ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة «من أتاه الله من هذا المال شيئاً من غير أن يسأله فليقبله» [أحمد: ٧٨٦١]، وانظر صحيح الترمذي: [٨٤٩]، وقال الألباني صحيح لغيره [وفي الصحيحين من حديث عمر «ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ... الحديث» [البخاري: ٧١٦٤]، ومسلم: [١٠٤٥].

أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن، فإن أخذه حرام محض لا شبهة فيه.

**الثالث:** أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله، إذ يكون معيّنًا له على غرضه الفاسد. وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول: لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخارًا به لأخذت. وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال: إنما أزدُ صلتهم إشفاقًا عليهم ونصحًا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بدّ منه أو هو مستغن عنه، فإن كان محتاجًا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ، قال النبي ﷺ: «ما المعطي من سعة بأعظم أجرًا من الآخذ إذا كان محتاجًا»<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه»<sup>(٢)</sup>، وفي لفظ آخر: «فلا يرده». وقال بعض العلماء: من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط. وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئًا فرده مرة، فقال له السري: يا أحمد، احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ، فقال له أحمد: أعد علي ما قلت فأعاده، فقال أحمد: ما رددت عليك إلا لأنّ عندي قوت شهر، فاحبسه لي عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إليّ، وقد قال بعض العلماء: يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره؛ فأما إذا كان ما أتاه زائدًا على حاجته فلا يخلو: إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمر الفقراء والإنفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولًا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبًا طريق الآخرة، فإن ذلك محض اتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو سبيل الشيطان أو داع إليه، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ثم له مقامان:

**أحدهما:** أن يأخذ في العلانية ويرد في السر، أو يأخذ في العلانية ويفرق في السر، وهذا مقام الصديقين؛ وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة.

**والثاني:** أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه، فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية؛ وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه؟ في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه. وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمهما الله، فإنما كان لاستغنائهما عنه،

(١) ضعيف: حديث «ما المعطي من سعة بأعظم أجرًا من الآخذ إذا كان محتاجًا». رواه الطبراني من حديث ابن عمر، وقد تقدم في الزكاة. [انظر ضعيف الترمذي: ٥٠٥].

(٢) حديث «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه» وفي لفظ آخر «فلا يرده». تقدم قبل هذا بحديث. [سبق تحريجه قريبًا].

إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره، فإن في ذلك آفات وأخطارًا، والورع يكون حذرًا من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه.

وقال بعض المجاورين بمكة: كانت عندي دراهم أعدتها للإنفاق في سبيل الله، فسمعت فقيرًا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي: أنا جائع كما ترى عريان كما ترى، فما ترى فيما ترى يا من يَرَى ولا يُرَى، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه، فقلت في نفسي: لا أجد لدراهمي موضعًا أحسن من هذا؛ فحملتها إليه، فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال: أربعة ثمن مئزرين، ودرهم أنفقه ثلاثًا فلا حاجة بي إلى الباقي فرده. قال: فرأيتة الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان، فهجس في نفسي منه شيء، فالتفت إلي فأخذ بيدي، فأطافني معه أسبوعًا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين: منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، ولم يظهر ذلك للناس، فقال: هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وأخذ من أيدي الخلق لأن هذه أثقال وفتنة، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة، والمقصود من هذا: إن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقًا بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقد قال ﷺ: «لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه وثوب يوارى عورته، وبیت يكتنه، فما زاد فهو حساب»<sup>(١)</sup>، فإذا أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب.

ومن الاختبار أيضًا: أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربًا إلى الله تعالى وكسرًا لصلة النفس فتأتيك عفواً صفواً لتمتحن بها قوة عقلك، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألقت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها، فرد ذلك مهم وهو الزهد، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد، ولا يقدر عليه إلا الصديقون: وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصالحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره، فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار، فربما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك وقد تصدّى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على

(١) ضعيف: حديث «لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يوارى عورته، وبیت يكتنه فما زاد فهو حساب». أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال «وجلف الحيز والماء» بدل قوله «طعام يقيم صلبه» وقال صحيح. [الترمذي: ٢٣٤١، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٧٦].

حسن الظنّ بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة، فإن رزقه الله من حلال قضاؤه، وإن مات قبل القضاء قضاؤه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧] قيل معناه: لبيع أحد ثوبيه. وقيل معناه: فليستقرض بجاهه، فذلك مما آتاه الله. وقال بعضهم: إن لله تعالى عبادًا ينفقون على قدر بضائعهم، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى. ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف: الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء، فقيل: من هؤلاء؟ فقال: أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى، وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظنّ بالله تعالى، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى، فإذا منهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي فليأخذها، وينبغي أن يرى ما يأخذها من الله لا من المعطي؛ لأنّ المعطي واسطة قد سخر للطاء، وهو مضطرّ إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات. وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقًا في خمسين من أصحابه، فوضع الرجل مائدة حسنة، فلما قعد قال لأصحابه: إن هذا الرجل يقول: من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي عليه حرام، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابًا منهم كان دونهم في الدرجة، فقال صاحب المنزل لشقيق: ما قصدت بهذا؟ قال: أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم. وقال موسى عليه السلام: يا رب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يومًا ويعشييني هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي، أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه.

### بهايات نهيتم السؤال من غير ضرورة، وآداب الفقير المضطر فيه:

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات، وورد فيه أيضًا ما يدل على الرخصة إذ قال ﷺ: «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرْسٍ»<sup>(١)</sup>، وفي الحديث: «رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفٍ مُحْرَقٍ»<sup>(٢)</sup>، ولو كان السؤال حرامًا مطلقًا لما جاز إعانة المتعدّي على عدوانه والإعطاء

(١) ضعيف: حديث «للسائل حق ولو جاء على فرس». رواه أبو داود من حديث الحسين بن علي، ومن حديث علي وفي الأول يعلى بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان، وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود، وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال: أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها «للسائل حق... الحديث» فإنه لا يصح عن أحمد، فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده. [أبو داود: ١٦٦٥، وأحمد: ١٧٣٢، وانظر السلسلة الضعيفة: ١٣٧٨].

(٢) صحيح: حديث «ردوا السائل ولو بظلف محرق». رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، والنسائي واللفظ له من حديث أم بجيد. وقال ابن عبد البر. حديث مضطرب. [أبو داود: ١٦٦٧، والترمذي: ٦٦٥، والنسائي: ٢٥٦٥، وانظر صحيح الجامع: ٣٥٠٢، والظلف: اسم لقدم البقر أو الغنم].

إعانة، فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بدّ فهو حرام، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة.

**الأول:** إظهار الشكوى من الله تعالى، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعاً على سيده، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة.

**الثاني:** أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه، فأما سائر المخلوق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسئول.

**الثالث:** أنه لا ينفك عن إيذاء المسئول غالباً؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله ﷺ: «مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنَ الْفَوَاحِشِ مَا أَحَلَّ مِنَ الْفَوَاحِشِ غَيْرُهَا»<sup>(١)</sup>، فانظر كيف سماها فاحشة، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره. وقال ﷺ: «مَنْ سَأَلَ عَنْ غَنِيٍّ فَإِنَّمَا يَسْتَكْبِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ»<sup>(٢)</sup>، «وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظُمَ يَتَقَفَّعُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ لَحْمٌ» وفي لفظ آخر: «كَانَتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشًا وَكُدُوحًا فِي وَجْهِهِ»<sup>(٣)</sup>، وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد. وبإيعاد رسول الله ﷺ قوماً على الإسلام فاشتراط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئاً»<sup>(٤)</sup>، وكان ﷺ يأمر كثيراً

(١) حديث «مسألة الناس من الفواحش، وما أحل الله من الفواحش غيرها». لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث «من سأل عن غني فإنا يستكثر من جمر جهنم». [أبي داود: ١٦٢٩، وانظر صحيح الترغيب: ٨٠٥] رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصرًا على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة، ولمسلم من حديث أبي هريرة «من يسأل الناس أموالهم تكثراً فإنا يسأل جمرًا... الحديث» [ملم: ١٠٤١]. وللبراز والطبراني من حديث مسعود بن عمر «ولا يزال العبد يسأل وهو غني يخلق وجهه» [انظر ضعيف الترغيب: ٤٨٨] وفي إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم» [البخاري: ١٤٧٥، وعند مسلم: ١٠٤٠] وإسناده جيد.

(٣) صحيح: حديث «من سأل وله ما يغنيه كانت مسألته خدوشًا وكدوحًا في وجهه». رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود، وتقدم في الزكاة. [أبو داود: ١٦٢٦، والترمذي: ٦٥٠، والنسائي: ٢٥٩٢، وابن ماجه: ١٨٤٠، وانظر السلسلة الصحيحة: ٤٩٩].

(٤) صحيح: حديث: بايع قوماً على الإسلام فاشتراط عليهم السمع والطاعة». أخرجه مسلم من حديث عوف

بالتعفف عن السؤال ويقول: «مَنْ سَأَلْنَا أَعْطَيْنَاهُ وَمَنْ اسْتَعْنَى أَعْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا»<sup>(١)</sup>، وقال عليه السلام: «اسْتَعْنُوا عَنِ النَّاسِ وَمَا قَلَّ مِنَ السُّؤَالِ فَهُوَ خَيْرٌ» قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «وَمِنِّي»<sup>(٢)</sup>، وسمع عمر رضي الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه: عش الرجل، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال: ألم أقل لك عش الرجل؟ قال: قد عشيت، فنظر عمر فإذا تحت يده مخللة مملوءة خبزاً فقال: لست سائلاً ولكنك تاجر، ثم أخذ المخللة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرّة، وقال: لا تعد. ولولا أن سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ مخللاته، ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول: أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده؟ أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضباً في معصية الله وحاشاه، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهيهات فإن ذلك أيضاً معصية، بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رأى مستغنياً عن السؤال، وعلم أن من أعطاه شيئاً فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج، وقد كان كاذباً فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه، إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم، فبقي مالا لا مالك له، فوجب صرفه إلى المصالح، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح، ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذباً كأخذ العلوي بقوله: إني علوي وهو كاذب. فإنه لا يملك ما يأخذه، كأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما أعطاه — وقد ذكرنا في مواضع أن ما أخذه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه — فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء، وقد قرّرناه في مواضع، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر.

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة، فاعلم أن الشيء، إما أن يكون مضطراً إليه، أو محتاجاً إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة. أو مستغنى عنه؛ فهذه أربعة أحوال.

أما المضطراً إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً وسأل العاري وبدنه

ابن مالك الأشجعي. [مسلم: ١٠٤٣].

(١) حديث «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أعناه الله». أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة، والهارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه حصن بن هلال لم أر من تكلم فيه، وباقيهم ثقات.

(٢) حديث «استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير» [صحيح التنبی: ٨١٨] قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال «ومني». أخرجه البزار والطبراني من حديث ابن عباس «استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك، وإسناده صحيح، وله في حديث «فتعففوا ولو بحزم الحطب» وفيه من لم يسم، وليس فيه: وما قل من السؤال... إلخ.

مكشوف ليس معه ما يواريه، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المستول بكونه مباحًا، والمستول منه بكونه راضيًا في الباطن، وفي السائل بكونه عاجزًا عن الكسب، فإن القادر على الكسب وهو بطال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة.

وأما المستغني فهو الذي يطلب شيئًا وعنده مثله وأمثاله، فسؤاله حرام قطعًا، وهذا طرفان واضحان.

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمرضى الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف، وكمن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد. تأذيًا لا ينتهي إلى حد الضرورة، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة، فهذا أيضًا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضًا حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروهًا مهما صدق في السؤال وقال: ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذى أظيقه ولكن يشق عليّ، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى.

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصًا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخيز، وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المستول فهو حرام، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة.

**فإن قلت:** فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج، ولكن يقول: أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس، فيخرج به عن حد الشكوى وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله، أو الرجل السخي الذي قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك، فإن الذل لازم للمنة لا محالة. وأما الإيذاء فبسبب الخلاص عنه أن لا يعين شخصًا بالسؤال بعينه بل يلقي الكلام عرضًا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة، وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام، فهذا إيذاء، فإنه ربما يبذل كرهًا خوفًا من الملامة، ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة، وأما إذا كان يسأل شخصًا معينًا فينبغي ألا يصرح بل يعرض تعريضًا يبقى له سبيلًا إلى التغافل إن أراد فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته

وأنه غير متأذ به، وينبغي أن يسأل من لا يستحيا منه لو رده أو تغافل عنه، فإنّ الحياء من السائل يؤذي كما أنّ الرياء مع غير السائل يؤذي.

فإن قلت: فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة؟ فأقول: ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام، وضرب الباطن أشدّ نكايه في قلوب العقلاء، ولا يجوز أن يقال: هو في الظاهر قد رضي به، وقد قال ﷺ: «إِنَّمَا أُحْكَمُ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ»<sup>(١)</sup>، فإنّ هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب، ولكن الضرورة دعت إليه، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى، والحاكم فيه أحكم الحاكمين، والقلوب عنده كالأسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك، فإنّ المفتي معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة، كما أنّ بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا، فإذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه، فإن كان يستحيا من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساويه قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتقصى عن عهده، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته، فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه بالسؤال الذي حصل به الأذى.

فإن قلت: فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه، فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راضٍ ولا يكون هو في الباطن راضياً؟ فأقول: لهذا ترك المتقون السؤال رأساً فما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً فكان بشر لا يؤخذ من أحد أصلاً إلا من السري رحمة الله عليهما وقال: لأنني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحب، وإنما عظم التكبير في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا؛ لأنّ الأذى إنما يحل بضرورة: وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة، فكان الامتناع طريق الورعين، ومن أرباب القلوب من كان واثقاً ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه، ومنهم

(١) لا أصل له: حديث «إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر». لم أجد له أصلاً، وكذا قال المزني لما سئل عنه. [انظر كتاب دفاع من الحديث ص (٢٧)، وقال الألباني: لا وجود له في كتب الحديث المشهورة ولا الأجزاء المتنورة وجزم العراقي أنه لا أصل له].

من كان يأخذ مما يعطى بعضًا ويرد بعضًا، كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأقط، وكان هذا يأتيهم من غير سؤال، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة، ولكن قد تكون رغبته طمعًا في جاه أو طلبًا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسًا إلا في موضعين:

أحدهما: الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة: سليمان، وموسى، والخضر عليهم السلام. ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم.

والثاني: السؤال من الأصدقاء والإخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان؛ لأنَّ أرباب القلوب علموا أنَّ المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان، وقد كانوا وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباستطهم، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال، وحدَّ إباحة السؤال أن تعلم أنَّ المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا بتعريف حاجتك، فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا، ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن، وحالة لا يشك في الكراهة، ويعلم ذلك بقريئة الأحوال، فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق، وفي الثانية سحت، ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإثم، وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته، فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة، وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله ﷺ «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ»<sup>(١)</sup>، وقد أوتي جوامع الكلم؛ لأنَّ من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فليأكل من أيدي الناس، وإن أعطي بغير سؤال فإنما يعطى بدينه، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حرامًا، وإن أعطي بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل؟ وإين من يقتصر في السؤال على حدِّ الضرورة، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أنَّ جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأنَّ الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك، فإذا بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره، وأن يغنيننا بحلاله عن حرامه، وبفضله عن سواه بمنه وسعة جوده، فإنه على ما يشاء قدير.

بيانات مقدار الفنى المهرم للسؤال:

اعلم أن قوله ﷺ «مَنْ سَأَلَ عَن ظَهْرِ غَنِيٍّ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلَيْسَتْ قَلْبٌ مِنْهُ أَوْ لَيْسَتْ كَثِيرَةٌ»

(١) صحيح: حديث «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ». تقدم. [أبو داود: ٣٥٢٨، وابن ماجه: ٢١٣٧، وانظر صحيح الجامع: ٢٢٠٨].

صريح في التحريم، ولكن حدّ الغنى مشكل وتقديره عسير، وليس إلينا وضع المقادير، بل يستدرك ذلك بالتوقيف، وقد ورد في الحديث: «اسْتَعْنُوا بِغِنَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ غَيْرِهِ» قالوا: وما هو؟ قال: «غَدَاءُ يَوْمٍ وَعَشَاءُ لَيْلَةٍ»<sup>(١)</sup>، وفي حديث آخر: «مَنْ سَأَلَ وَلَهُ خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ عِدْلُهَا مِنَ الذَّهَبِ فَقَدْ سَأَلَ الْخِيفَةَ»<sup>(٢)</sup>، وورد في لفظ آخر: «أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا» ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة، فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحدًا والتقدير ممتنع، وغاية الممكن فيه تقريب، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين، فنقول: قال رسول الله ﷺ: «لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: طَعَامٌ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٌ يُؤَارِي بِهِ عَوْرَتَهُ، وَبَيْتٌ يُكِنُّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ» فلنجعل هذه الثلاث أصلًا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضًا. وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بدوي الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس، وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعًا، ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفير فيما يكفي فيه الخزف، فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد من النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة. وأما الطعام فقدره في اليوم مدّ وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير. والأدم على الدوام فضلة، وقطعه بالكلية إضرار، ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة. وأما المسكن فأقله ما يجزىء من حيث المقدار وذلك من غير زينة، فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى، وأما بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه وماوى يسكنه فلا شك فيه، فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات.

إحداها: ما يحتاج إليه في غد.

والثانية: ما يحتاج إليه في أربعين يومًا أو خمسين يومًا.

والثالثة: ما يحتاج إليه في السنة، ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال

(١) صحيح: حديث «استغنوا بغنى الله» قالوا: وما هو؟ قال «غداء يوم وعشاء ليلة». تقدم في الزكاة من حديث سهل بن الحنظلية قالوا ما بغنيه؟ قال «ما يغديه أو يعيشه» ولأحمد من حديث علي ياسناد حسن: قالوا وما ظهر غني؟ قال «عشاء ليلته» وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة. [أبو داود: ١٦٢٩، وأحمد: ١٧١٧٣، وانظر صحيح الترمذي: ٨٠٥].

(٢) صحيح: حديث «من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل الخيف» وفي لفظ آخر «أربعون درهما». تقدم في الزكاة. [أبو داود: ١٦٢٧، وانظر صحيح أبي داود].

لسنة فسؤاله حرام، فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهماً في الحديث، فإن خمسة دنائير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد، أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة، فإن كان قادراً على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر.

وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال، لأن أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطراً عاجزاً عما يعينه، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محل الضرورة لم يدخل سؤاله عن كراهية، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف الفوت وتراخي المدّة التي فيها يحتاج إلى السؤال، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى، فيستفتي فيه قلبه ويعمل به إن سالكاً طريق الآخرة، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَبْذُرُونَ الْبُرُودَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعَذُّكُمْ مَعْفُورَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨] والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثاً، وادخره لحاجة وراء السنة، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

#### بيانات أصحاب السائلين:

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ، فهذا مع الروحانيين في عليين. وفقير لا يسأل وإن أعطي أخذ، فهذا مع المقربين في جنات الفردوس. وفقير يسأل عند الحاجة، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين.

فإذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة.

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال: تركتهم إن أعطوا شكروا، وإن منعوا صبروا، وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أنشئ عليهم غاية الثناء، فقال شقيق: هكذا تركت كلاب بلخ عندنا، فقال له إبراهيم: فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق؟ فقال: الفقراء عندنا إن منعوا شكروا، وإن أعطوا أثروا. فقبل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ.

فإذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة، فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رد إلى أسفل سافلين، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين، ومن لا يميز بين السفلى والعلو لا يقدر على الرقي قطعاً، وإنما الشك فيمن عرف ذلك، فإنه ربما لا يقدر عليه، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيداً لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإن مثل هذه الأعمال بالنيات، وذلك كما روي أنّ بعضهم رأى أبا إسحاق النوري رحمه الله يمدّ يده ويسأل الناس في بعض المواضع، قال: فاستعظمت ذلك واستقبحته له، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال: لا يعظم هذا عليك، فإنّ النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم، وإنما سألهم ليشبههم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ: «يَدُ الْمُعْطِي هِيَ الْعُلْيَا» (١).

فقال بعضهم: يد المعطي هي يد الآخذ للمال لأنه يعطي الثواب والقدر له لا لما يأخذه، ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال: احملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره، فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل حكيم؟ واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى الثوري فقال: هات الميزان، فوزن مائة درهم وقال: ردها عليه وقل له: أنا لا أقبل منك أنت شيئاً وأخذ ما زاد على المائة قال: فزاد تعجبي، فسألته فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه: وزن المائة لنفسه طلباً لثواب الآخرة، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه.

قال: فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال: أخذ ماله ورد مالنا الله المستعان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب، وتناجي الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل، كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه. ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعله في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً، وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خالياً عن حظ واف من الجهل، بل البصير أحد رجلين: إما رجل سلك

(١) صحيح: حديث (يد المعطي هي العليا). أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. [مسلم: ١٠٤٢ عن أبي هريرة وليس فيه أنها «يد المعطي»]، مسلم: ١٠٣٣ عن ابن عمر وفيه «اليد العليا المنفقة» ولفظ الحديث عند النسائي: ٢٥٣٢، وانظر صحيح النسائي.

الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين. ولعلم اليقين أيضاً رتبة وإن كان دون عين اليقين، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

### الشطر الثاني من الكتاب في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد، وبيان فضيلة الزهد، وبيان درجات الزهد وأقسامه، وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والمسكن والأثاث وضروب المعيشة، وبيان علامة الزهد.  
بيانات حقيقة الزهد:

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل وكسائر المقامات؛ لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل، وكان القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مراداً لعينه، وإن لم يكن صادراً عن حال سمي إسلاماً ولم يسم إيماناً والعلم هو السبب في حال يجري مجرى المثمر، والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة، فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل: أما الحال فتعني بها ما يسمى زهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره؛ فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبةً وحباً، فإذا استدعي حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زهداً، إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زهداً، وإنما يسمى زهداً من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من المبيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهداً فيه، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحباً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَاتَبُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] معناه باعوه، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه، إذ طمعوا أن يخلو لهم

وجه أبيهم؛ وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعًا في العوض، فإذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضًا زاهد ولكن في الآخرة، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للميل في وضع اللسان.

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالدول إلى شيء هو أحب منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال، والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك المحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضًا زاهد ولكنه دون الأول، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقًا، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين، وهو زهد صحيح، كما أنّ التوبة عن بعض المعاصي صحيحة، فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدًا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه، ولكن العادة تخصّص هذا الاسم بترك المباحات، فإذا الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيرًا عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدورًا عليه، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال، وبالترك يتبين زوال الرغبة، ولذلك قيل لابن المبارك: يا زاهد، فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففيمًا زهدت؟.

وأما العلم الذي هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرًا بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع، فكذلك من عرف أنّ ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى، أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى، كما تكون الجواهر خيرًا وأبقى من الثلج مثلاً.

ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر والآلئ، فهكذا مثال الدنيا والآخرة، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له، فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة، حتى إنّ من قوي يقينه يبيع نفسه وماله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى: ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا بِيَعْتِكُمْ أَلَّذِي بِأَيْعَتُمْ بِهِ﴾ [التوبة: ١١١] فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا

إلى هذا القدر، وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا، إما لضعف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسوية يوماً بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت: وإلى تعريف حساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَلْتَمُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [الفصص: ٨٠] فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغوب عن عوضه، ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له النبي ﷺ: «لَا تَقُلْ هَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ: أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ»<sup>(١)</sup>، وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير.

والعبد يراها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً؛ لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس، والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراه متفاوتاً بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره، وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب يوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن، فإذا وفي بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست بشر بيعه الذي يبيع به؛ فإن الذي يبيعه بهذا البيع وفي بالعهد، فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد، وما دام ممسكاً للدنيا لا يصح زهده أصلاً، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا: ﴿لِيُؤْسَفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا﴾ [يوسف: ٨] وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك، ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه، بل عند التسليم والبيع، فعلامه الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج، فإن أخرجت عن اليد بعض

(١) حديث: قال رجل: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له «لا تقل هكذا، ولكن قل: أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك». ذكره صاحب الفردوس مختصراً «اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك» من حديث أبي القصير ولم يخرج له ولده.

الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدًا مطلقًا، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدًا مطلقًا، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد؛ لأن ما لا يقدر عليه لا يقوى على تركه، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها، فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله، فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من طان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات، فإياك أن تثق بوعدتها في المباحات، والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها، أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة، فإذا وقت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعدار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما، ولكن تكون من تغييرها أيضاً على حذر، فإنها سريعة النقص للعهد، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع.

وبالجملة، فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة.

قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة: ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفتي في مسألة إلا رد علينا - يعني أبا حنيفة - فقال ابن شبرمة: لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو؟ لكن أعلم أن للدنيا غدت إليه فهرب منها، وهربت منا فظلمناها، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله ﷺ: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] (١). قال ابن مسعود رحمه الله: قال لي رسول الله ﷺ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» - يعني من القليل -

قال: وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] (٢). واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات، وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة، فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة؛ فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق، ولكن لا يكون زهداً؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألد وأهنأ من المال، وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعاً في العوض ليس من الزهد، فكذلك تركه طمعاً في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة

(١) حديث قال المسلمون: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه، حتى نزل قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦] الآية: لم أقف له على أصل.

(٢) حديث ابن مسعود: ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] الآية. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن.

والسخاء واستثقلاً له لما في حفظ المال من المشقة والعناء. والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلاً، بل هو استعجال حظ آخر للنفس؛ بل الزاهد من أته الدنيا راغمة صفواً عفواً وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس، فتركها خوفاً من أن يأنس بها، فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله، ويكون مشركاً في حب الله تعالى غيره. أو تركها طمعاً في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنة، وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعاً في زينة الجنة، وترك المطاعم اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة وخوفاً من أن يقال له ﴿أَذَهَبْتُمْ طَبِيبِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الاحقاف: ٢٠] فأثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفواً لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى، وأن ما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلاً.

#### بيانات فضيلة الزهد:

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ﴾ [القصص: ٨٠] فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤] وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] قيل: معناه أيهم أزهدها فيها، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال. وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِمْ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [السورى: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [البراهيم: ٣] فوصف الكفار بذلك، فمفهومه: أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا.

وأما الأخبار: فما ورد منها في ذم الدنيا كثير، وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا مع ربع المهلكات، إذ حب الدنيا من المهلكات، ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات، وهو المعنى بالزهد، وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضِعْفَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ هَمُّهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضِعْفَتَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ﴾<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: ﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ وَقَدْ أُعْطِيَ صَفْنًا وَرَهْدًا فِي الدُّنْيَا فَاقْتَرَبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقَى

(١) صحيح: حديث «من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره». أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه. [الترمذي: ٢٤٦٥، وابن ماجه: ٤١٠٥، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٦٨].

الْحِكْمَةَ»<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يومًا أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه.

وعن بعض الصحابة أنه قال: قلنا: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ» قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب؟ قال: «التَّقِيُّ النَّعِيِّ الَّذِي لَا غِلَّ فِيهِ وَلَا غِشٌّ وَلَا بَغْيٌ وَلَا حَسَدٌ» قلنا: يا رسول الله، فمن على أثره؟ قال: «الَّذِي يَشْنَأُ الدُّنْيَا وَيُحِبُّ الْآخِرَةَ»<sup>(٢)</sup>، ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا. وقال ﷺ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُجِبَّكَ اللَّهُ فَارْهَدْ فِي الدُّنْيَا»<sup>(٣)</sup>، فجعل الزهد سببًا للمحبة، فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات، ومفهومه أيضًا أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى، وفي خبر من طريق أهل البيت: «الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة، فإن صادفا قلبًا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلاه»<sup>(٤)</sup>، ولما قال حارثة لرسول الله ﷺ: «أنا مؤمن حقًا قال: «وَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزًا، فقال ﷺ: «عَرَفْتَ فَالْزَمِ، عَبْدُ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ»<sup>(٥)</sup>، فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين، وكيف زكاه رسول الله ﷺ إذ قال: عبد نور الله قلبه بالإيمان. ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرع في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقيل له: ما هذا الشرح؟ قال: «إِنَّ التَّوَرَّ إِذَا دَخَلَ فِي الْقَلْبِ انشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَتَحَ» قيل: يا رسول الله. وهل لذلك من علامة؟ قال: «نَعَمْ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالْإِسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوَالِهِ»<sup>(٦)</sup>، فانظر كيف جعل الزهد شرطًا للإسلام وهو التجافي عن دار الغرور؟ وقال ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»

(١) ضعيف: حديث «إذا رأيتهم العبد قد أوتي صمتًا وزهدًا في الدنيا فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة». رواه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف. [ابن ماجه: ٤١٠١، وانظر ضعيف ابن ماجه].

(٢) صحيح: حديث: قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب؟ قال «التقي النقي». رواه ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله: يا رسول الله فمن على أثره، وقد تقدم، ورواه بهذه الزيادة بالإسناد المذكور الخرائطي في مكارم الأخلاق. [ابن ماجه: ٤٢١٦، وانظر صحيح الترفيب: ٢٨٨٩].

(٣) حسن لغيره: حديث إن أردت أن يجيبك الله فارهذ في الدنيا». رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه، وقد تقدم. [ابن ماجه: ٤١٠٢، وانظر صحيح الترفيب: ٣٢١٣].

(٤) حديث «الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة، فإن صادفا قلبًا فيه الإيمان والحياة أقاما فيه وإلا ارتحلاه». لم أجد له أصلاً.

(٥) حديث: لما قال له حارثة: أنا مؤمن حقًا، فقال «وما حقيقة إيمانك؟» قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزًا، فقال ﷺ «عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان». أخرجه البزار من حديث أنس، والطبراني من حديث الحارث بن مالك، وكلا الحديثين ضعيف.

(٦) ضعيف: حديث: سئل عن قوله تعالى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. أخرجه الحاكم، وقد تقدم. [انظر المشكاة: ٥٢٤٨].

قالوا: إنا لنستحيي منه تعالى، فقال: «لَيْسَ كَذَلِكَ تَبْتُونَ مَا لَا تَشْكُونَ، وَتَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ»<sup>(١)</sup>، فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى، ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون.

قال: «وَمَا عَلَامَةُ إِيْمَانِكُمْ؟» فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَجْمَعُوا مَا لَا تَأْكُلُونَ وَلَا تَبْتُونَ مَا لَا تَشْكُونَ، وَلَا تَنَافَسُوا فِيمَا عَنْتُمْ تَرْحَلُونَ»<sup>(٢)</sup>، فجعل الزهد تكملة لإيمانهم. وقال جابر رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَخْلُطُ بِهَا غَيْرَهَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، فقام إليه علي كرم الله وجهه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها؟ صفه لنا ففسره لنا، فقال: «حُبُّ الدُّنْيَا طَلَبًا لَهَا وَاتِّبَاعًا لَهَا، وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الْأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلُونَ عَمَلَ الْجَبَابِرَةِ، فَمَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»<sup>(٣)</sup> وفي الخبر: «السَّخَاءُ مِنَ الْيَقِينِ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مُوقِنٌ، وَالْبُخْلُ مِنَ الشُّكِّ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ شَكَّ»<sup>(٤)</sup>، وقال ﷺ أيضًا: «السَّخِي قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ»<sup>(٥)</sup>، والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد. والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة.

وروي عن ابن المسيب عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ قَلْبَهُ فَانْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَعَرَفَهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ»<sup>(٦)</sup>، وروي أنه ﷺ مرَّ في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت

(١) حديث «استحيوا من الله حق الحياة». رواه الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف. [الشرط الأول عند الترمذي: ٢٤٥٨، وانظر صحيح الترغيب: ١٧٢٤، وقال الألباني: حسن لغيره، والشرط الثاني «تبتون مالا...» هو جزء من الحديث التالي، وقال الألباني: منكر كما سيأتي، ولم أقف عليه كاملاً، ولم أقف عليه عند الطبراني].

(٢) منكر: حديث: لما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون. قال «وما علامة إيمانكم؟». رواه الخطيب وابن عساكر في تاريخهما بإسناد ضعيف من حديث جابر. [انظر كتاب الإيمان لابن تيمية، وقال الألباني: منكر].

(٣) حديث جابر «من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئاً وجبت له الجنة». لم أره من حديث جابر، وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف.

(٤) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن». ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرج له ولده في مسنده.

(٥) ضعيف: حديث «السخي قريب من الله». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [الترمذي: ١٩٦١، وانظر ضعيف الترغيب: ١٥٥٥].

(٦) ضعيف: حديث أبي ذر «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه». لم أر من حديث أبي ذر، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلًا، ولا بن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري «من زهد في الدنيا أربعين يوماً وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وقال

من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللين والوير، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْمَسَتْ عُنُقَ﴾ [التكوير: ٤] قال: فأعرض عنها رسول الله ﷺ وعض بصره، فقيل له: يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها؟ فقال: «قَدْ نَهَانِي اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ [طه: ١٣١] الآية (١). وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله؛ ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع؟ فقال: «يا عائشة؛ والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهبًا لأجراها حيث شئت من الأرض؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شعبها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها، يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، والله ما لي بد من طاعته وإني والله لأصبرن كما صبروا بجهدتي ولا قوة إلا بالله» (٢).

وروي عن عمر رضي الله عنه: أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها: البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر، فقال عمر: يا حفصة، أأنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت: بلى.

قال: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبوعا عشية إلا جاعوا غدوة، وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبي ﷺ لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرَّبتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ كان ينام على عباءة مثنية

حديث منكر. وقال الذهبي باطل: ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصراً من حديث أبي أيوب «من أخلص لله، وكلها ضعيفة. [انظر ضعيف الجامع: ٥٣٦٩].

(١) حديث مر في أصحابه بعشائر من النوق حفل» ثم تلا قوله تعالى ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ [الحجر: ٨٨] الآية. لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله، ألا تستطعم ربك فيطعمك، قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع، فقال يا عائشة. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصراً «يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال تعالى ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ومجالد مختلف في الاحتجاج به.

فنتيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال: «مَتَعْتُمُونِي قِيَامَ اللَّيْلَةِ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ ائْتَوْهَا بِائْتِنِينَ كَمَا كُنْتُمْ تَتْنُونَهَا؟» وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبًا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين إزارًا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج (١). وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا طريقًا، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما، وإنني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلني أدرك معهما عيشهما الرغيد.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «لَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ فَلَا يَلْبَسُ إِلَّا الْعِبَادَةَ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَبْتَلَى بِالْقَمَلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَطَاءِ إِلَيْكُمْ» (٢).

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال؛ فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله

(١) حديث: أن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة: البس الثياب إذا قدمت عليك الوفود. لم أجد هكذا مجموعا في حديث، وهو مفرق في عدة أحاديث، فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله غدا وعشاء من خبز وشعير حتى لقي ربه، وفيه عمرو بن عبد الله القدري متروك الحديث. وللترمذي من حديث عائشة قالت: «ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت، قلت: لم؟ قالت: أذكر الحال التي فارق رسول الله ﷺ الدنيا عليها، والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم» وقال حديث حسن، [الترمذي: ٢٣٥٦، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٩٨، وقال الألباني: منكر]. وللشيخين من حديثهما: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض» [البخاري: ٥٤١٦، ومسلم: ٢٩٧٠]. وللبخاري من حديث أنس: «كان لا يأكل على خوان... الحديث» [البخاري: ٥٣٨٦، تقدم في آداب الأكل، وللترمذي في الشمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت: «ما كان فراش النبي ﷺ؟» مسح نثيه ننتين فينام عليه... الحديث» [انظر الشمائل، وقال الألباني: ضعيف جدًا]. ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة: أنها كانت تفرش للنبي ﷺ عباءة بائنتين... الحديث. وتقدما في آداب المعيشة. وللبزار من حديث أبي الرداء قال: «كان رسول الله ﷺ لا ينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد» [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٠٥، وقال الألباني: موضوع]. وقال: لا نعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد. قال يونس بن بكير: قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها. قلت: فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحيى القطان وضعفه البخاري وابن حبان وابن عدي وغيرهم. ولابن ماجه من حديث عباد بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها زاد الفطريفي في جزئه المشهور: فقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف، وتقدم في آداب المعيشة [عند ابن ماجه: ٣٥٥٢، وانظر ضعيف ابن ماجه].

(٢) صحيح: حديث أبي سعيد الخدري: كان الأنبياء قبلي يتبلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباءة. بإسناد صحيح في أثناء حديث أوله: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك دون قوله: وإن كان أحدهم ليتبلى بالقمل. [انظر صحيح الترغيب: ٣٤٠٣، وفيه قوله: «كان أحدهم ليتبلى بالقمل»].

بالله وبطريق الفوز في الآخرة.

وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُلْفُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] قال ﷺ: «تَبَا لِلدُّنْيَا تَبَا لِلدُّنْيَا تَبَا لِلدُّنْيَا وَالذُّرْهَمُ فَقَلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَهَانَا اللَّهُ عَنْ كَنْزِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَأَيُّ شَيْءٍ نَدْخُرُ؟ فَقَالَ ﷺ: «لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِهِ» (١).

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «مَنْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِثَلَاثٍ: هَمًّا لَا يُفَارِقُ قَلْبَهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لَا يَسْتَعْفِي أَبَدًا وَجِرْصًا لَا يَشْبَعُ أَبَدًا» (٢).  
وقال النبي ﷺ: «لَا يَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ أَنْ لَا يُعْرِفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُعْرِفَ؛ وَحَتَّى يَكُونَ قَلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ» (٣).

وقال المسيح: «الدُّنْيَا فَنَطْرَةٌ فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا». وقيل له: يا نبي الله لو أمرتنا أن ننبئ بيتنا نعبد الله فيه؟ قال: «أَذْهَبُوا فَاثْبُتُوا بَيْتًا عَلَى الْمَاءِ»، فقالوا: كيف يستقيم بئنان على الماء؟ قال: «وَكَيْفَ تَسْتَقِيمُ عِبَادَةٌ مَعَ حُبِّ الدُّنْيَا؟».

وقال نبينا ﷺ: «إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ وَلَكِنْ أَجْوَعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا، فَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَجْوَعُ فِيهِ فَاتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأَحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي ﷺ: «يَا جِبْرِيلُ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُمْسِي لآلِ مُحَمَّدٍ كَفَّ سَوِيْقٍ وَلَا سَفْعَةً دَقِيقٍ، فَلَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ بِأَشْرَعَ مِنْ أَنْ سَمِعَ هَدَّةً مِنَ السَّمَاءِ أَفْطَعْتَهُ، فَقَالَ

(١) صحيح لغيره: حديث عمر: لما نزل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُلْفُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] قال ﷺ: «تَبَا لِلدُّنْيَا تَبَا لِلدُّنْيَا تَبَا لِلدُّنْيَا وَالذُّرْهَمُ فَقَلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَهَانَا اللَّهُ عَنْ كَنْزِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَأَيُّ شَيْءٍ نَدْخُرُ؟» أخرجه الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله «تَبَا لِلدُّنْيَا وَالذُّرْهَمُ» والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان، وإنما قال المصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي ﷺ: أي المال يتخذ؟ كما في رواية ابن ماجه، وكما رواه البزار من حديث ابن عباس. [الترمذي: ٣٠٩٤، وابن ماجه: ١٨٥٦، وانظر صحيح الترغيب: ١٤٩٩].

(٢) ضعيف: حديث حذيفة «من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث». لم أجده من حديث حذيفة، أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن: من أشرق في قلبه حب الدنيا التاطب منها بثلاث: شقاء لا ينفذ عنه، وحرص لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وفي آخره زيادة. [حديث ابن مسعود انظر ضعيف الترغيب: ١٨٨٢].

(٣) حديث «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثرتة». لم أجده لإسناده، وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن أبي طلحة مرسلًا «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة، وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله» ولم يخرج له ولده في مسند الفردوس، وعلي بن أبي طلحة: أخرجه له مسلم، وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسله، فالحديث إذن معضل.

رسول الله ﷺ: «أَمَرَ اللَّهُ الْقِيَامَةَ أَنْ تَقُومَ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنْ هَذَا إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ نَزَلَ إِلَيْكَ حِينَ سَمِعَ كَلَامَكَ، فَأَتَاهُ إِسْرَافِيلُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمِعَ مَا ذَكَرْتَ فَبَعَثَنِي بِمَفَاتِيحِ الْأَرْضِ وَأَمَرَنِي أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أُسَيِّرَ مَعَكَ جِبَالَ تِهَامَةَ زُمْرُودًا وَيَاقُوتًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً فَعَلْتُ، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ أَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ فَقَالَ: «نَبِيًّا عَبْدًا» ثلاثًا (١).

وقال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا زَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُ فِي الْآخِرَةِ وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ» (٢).

وقال ﷺ لرجل: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبِّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبِّكَ النَّاسُ» (٣).

وقال صلوات الله عليه: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ عِلْمًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا» (٤)، وقال ﷺ: «مَنْ اشْتَقَّ إِلَى الْجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَمَنْ خَافَ مِنَ النَّارِ لَهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ الْمَوْتَ تَرَكَ اللَّذَاتِ، وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ» (٥).  
ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام: «أَرْبَعٌ لَا يُدْرِكُنَّ إِلَّا بِتَعَبٍ: الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ، وَالتَّوَاضُّعُ، وَكَثْرَةُ الذُّكْرِ، وَقِلَّةُ الشَّيْءِ» (٦)، وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا ودم حبها لا يمكن، فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لصراف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان.

وأما الآثار: فقد جاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم. وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتهم، لستم بها صادقين.

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر

(١) منكر: حديث ابن عباس: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفاة. تقدم مختصرا. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٠٨].

(٢) ضعيف: حديث «إذا أراد الله بعبده خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصرة بعيوب نفسه». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله «ورغبه في الآخرة» وزاد «فقهه في الدين» وإسناده ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٣٣٥].

(٣) حسن لغيره: حديث «ازهد في الدنيا يحبك الله». تقدم. [ابن ماجه: ٤١٠٢، وانظر صحيح الترغيب: ٣٢١٣].

(٤) حديث «من أراد أن يؤته الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا». لم أجد له أصلا.

(٥) ضعيف: حديث «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات». رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب. [انظر السلسلة الضعيفة: ٤٥٥٠].

(٦) موضوع: حديث «أربع لا يدركن إلا بتعب: الصمت وهو أول العبادة». رواه الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٧١١].

الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا.

وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيراً منكم. قيل : ولم ذلك؟ قال : كانوا أزهدي في الدنيا منكم.

وقال عمر رضي الله عنه : الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد.

وقال بلال بن سعد : كفى به ذنباً أن الله تعالى يزهدهنا في الدنيا ونحن نرغب فيها.

وقال رجل لسفيان : أشتهي أن أرى عالماً زاهداً، فقال : ويحك : تلك ضالة لا توجد.

وقال وهب بن منبه : إن للجنة ثمانية أبواب، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون : وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة.

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله : إنني لأشتهي من الله ثلاث خصال : أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم، ولا يكون علي دين ولا على عظمي لحم فأعطي ذلك كله.

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف

فلم يقبلها، فقال له بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال :

أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هرمت ذبحوها لأجل

أن ينتفعوا بجلدها، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني، موتوا يا أهلي جوعاً خيراً لكم من

أن تذبحوها فضيلاً.

وقال عبید بن عميرة كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر، وليس

له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد، أينما أدركه المساء نام.

وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم : هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام

والثياب والحطب فقال لها أبو حازم : من هذا كله بدّ، ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم

الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار.

وقيل للحسن : لم لا تغسل ثيابك؟ قال : الأمر أعجل من ذلك.

وقال إبراهيم بن أدهم : قد حجبت قلوبنا بثلاثة أعطية، فلن يكشف للعبد اليقين حتى

ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح، فإذا فرحت

بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا

سررت بالمدح فأنت معجب والمعجب يحبط العمل.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة

المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً.

وقال بعض السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا،

وكانه التفت إلى معنى قوله ﷺ : **إِنَّ اللَّهَ يَخِمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُجِيبُهُ كَمَا تَحْمُونَ**

مَرِيضُكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ» (١) ، فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدي إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدي إلى السقم.

وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترح لا دار فرح، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء.

وقال سهل: لا يخلص العمل لمتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء: الجوع، والعري، والفقر، والذل.

وقال الحسن البصري: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا قبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطو له ثوب ولم ينصب له قدور، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئًا، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم. كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك، والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه.

بيان درهات الزهد وأقسامه الإضافة إلى نفسه؛ وإلى المرغوب عنه، وإلى المرغوب فيه:

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: وهي السفلى منها: أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة، ولكنه يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى المتزهد، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهد يذيب أولاً نفسه ثم كيسه والزاهد أولاً يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه، والمتزهد على خطر، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير.

الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعًا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه، كالذي يترك درهمًا لأجل درهمين، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبًا بنفسه وبزهده، ويظن في نفسه أنه ترك شيئًا له قدر لما هو أعظم قدرًا منه، وهذا أيضًا نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعًا ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئًا. إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفه وأخذ جوهره، فلا يرى ذلك

(١) صحيح: حديث «إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا». تقدم. [انظر صحيح الترمذي: ٣١٧٩].

معاوضة، ولا يرى نفسه تاركًا شيئًا، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى، ونعيم الآخرة أحسن من خزفة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد. وسببه كمال المعرفة، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا، كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع.

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم: في أي شيء تتكلم؟ قال: في الزهد، قال: في أي شيء؟ قال في الدنيا: فنفض يده وقال: ظننت أنه يتكلم في شيء، والدنيا لا شيء، إيش يزهد فيها.

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنه يرى لنفسه يدًا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع، ثم يبقى ثفلها في المعدة، ثم تنتهي إلى التئن والقدر، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثفل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعني ما يسلم لكل شخص منها وإن عثر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، إذ لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له، والدنيا متناهية على القرب، ولو كانت تتمادي ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكثرة غير صافية، فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد، فإذا لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه، ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئًا معتدًا به، ولا يراه شيئًا معتدًا به إلا لقصور معرفته، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة، فهذا تفاوت درجات الزهد، وكل درجة من هذه أيضًا لها درجات، إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضًا باختلاف قدر المشقة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده.

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه نهر أيضًا على ثلاث درجيات:

الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر، ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار، إذ فيها: «إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشًا على عرقه لصدرت رواء»<sup>(١)</sup>، فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإن الخلاص من الألم

(١) ضعيف: حديث «إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشًا على عرقه لصدرت رواء».

يحصّل بمجرّد العدم.

**الدرجة الثانية:** أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنّته من الحور والقصور وغيرها، وهذا زهد الراجين؛ فإنّ هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له.

**الدرجة الثالثة:** وهي العليا. أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقاءه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى؛ وهو الذي أصبح وهمومه هم واحد؛ وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده، وكل مطلوب معبود؛ وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلب غير الله من الشرك الخفي، وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه، وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أنّ الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالهور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره، ولا تظنن أنّ أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك، وذلك لقصوره، عن إدراك لذة الملك لا لأنّ اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أنّ أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل. فنقول: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، وتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمل للجمل. أما الإجمال في الدرجة الأولى: فهو كل ما سوى الله، فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضًا، والإجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها. وفي الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في

أخرجه أحمد من حديث ابن عباس «التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غني، ومؤمن فقير... الحديث، وفيه: «إني حبست بعدك محبسا فظيما كريها ما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء» وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد: حديثه مثله. [أحمد: ٢٧٦٦، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٥٢].

العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كما أنّ معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال: ﴿رَبِّينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسْكَوِ وَالتَّيْبِينِ وَالتَّقْطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالتَّيْبَةِ وَالتَّحْيِيلِ الْمُسَوِّمَةِ وَالتَّنَكُّهِ وَالْحَرَبِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا لِلْحَيَوةِ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦] ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [فإن الجنة هي المأوى] ﴿[التازعات: ٤٠-٤١] فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه. وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى.

فالحاصل أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد البقاء ل يتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء؛ فإن من أراد شيئاً أراد دوامه، ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردّها، ولذلك لما كتب عليهم القتال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧] فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين. أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسينيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة، حتى أنّ خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول: كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعاً في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز، فلما مات عدّ على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات، هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأما المنافقون، ففرتوا من الزحف خوفاً من الموت فقيل لهم: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] فيأثروا البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالسذي هو خير، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ بِمَعْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]

وأما المخلصون، فإنّ الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة، فلما رأوا أنّهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلاً أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به، فهذا بيان المزهود فيه.

وإذا فهمت هذا علمت أنّ ما ذكره المتكلمون في حدّ الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه أو على من كان يخاطبه، فقال بشر رحمه الله تعالى: الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة. وقال قاسم الجوعي: الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف؛ فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي المهيجة لأكثر الشهوات. وقال الفضيل: الزهد في الدنيا هو القناعة، وهذا إشارة إلى المال خاصة. وقال الثوري: الزهد هو قصر الأمل، وهو جامع لجميع الشهوات، فإنّ من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها. وقال أويس: إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه، وما قصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد. وقال أويس أيضاً: الزهد هو ترك الطلب للمضمون، وهو إشارة إلى الرزق، وقال أهل الحديث: حب الدنيا هو العمل بالرأي والمعقول، والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة، وهذا إن أريد به الرأي الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح، ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات، فإنّ من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة، وقد طولوها حتى ينقضي عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده، وقال الحسن: الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال: هذا أفضل مني، فذهب إلى أنّ الزهد هو التواضع، وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد، وقال بعضهم: الزهد هو طلب الحلال، وأين هذا ممن يقول: الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال، وقد كان يوسف بن أسباط يقول: من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد.

وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة، فإنّ من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة، وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه، فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته، وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف، فلا جرم الأقوال المخيرة عنها

تختلف، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحدًا ولا يتصور أن يختلف، وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل: ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال: سمعنا في الزهد كلامًا كثيرًا، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال: من تزوج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدًا للزهد، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى: ﴿لَا مَنَ أَمَّا أَنَّى اللَّهُ يَقْلِبُ سَلِيمًا﴾ [الشعراء: ٨٩] فقال: هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال: إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للأخرة، فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة، كما قاله إبراهيم بن أدهم، فالفرض: هو الزهد في الحرام. والنفل: هو الزهد في الحلال.

**والسلامة:** هو الزهد في الشبهات.

وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد، إذ قيل لمالك بن أنس: ما الزهد؟ قال: التقوى، وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه، إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات، لا سيما خفايا الرياء فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سمسرة العلماء، بل الأموال الظاهرة أيضًا درجات الزهد فيها لا تنتهي، فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجراً في نومه فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك؟ قال: وما الذي تجدد؟ قال: توسدك الحجر: أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم، فرمى الحجر وقال: بخذه مع ما تركته لك.

وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركًا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللبس، فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى، أثرت علي الدنيا، فبكي ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه. وقال أحمد رحمه الله تعالى: الزهد زهد أويس، بلغ من العري أن جلس في قوصرة. وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط، فقال: ما أقمته أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتعم بظل الحائط، فإذا درجات الزهد ظاهراً وباطناً لا حصر لها، وأقل درجاته: الزهد في كل شبهة ومحذور. وقال قوم: الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحذور، فليس ذلك من درجاته في شيء، ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن.

فإن قلت: مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى؟ فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرًا وفكرًا، ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء، ولا بقاء إلا بضروريات النفس؛ فمهما اقتضت من الدنيا على

دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلاً بغير الله؛ فإن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه؛ فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضاً عن الحج، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج، ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب، وعن الحرّ والبرد المهلك باللباس والمسكن، فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى، فذلك لا يناقض الزهد، بل هو شرط الزهد، وإن قلت: فلا بدّ وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع؛ فاعلم أن ذلك لا يضرّك إذا لم يكن قصدك التلذذ، فإنّ شارب الماء البارد قد يستلذّ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش، ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصوداً عنده ومطلوباً بالقصد، فلا يكون القلب منصرفاً إليه؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسيم الأسحار وصوت الأطيّار، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره، ولقد كان في الخائفين من طلب موضعاً لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس، ويشرب الماء الحارّ ويقول: من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط، فإنه وإن كان شاقاً فمدته قريبة والاحتماء مدّة يسيرة للتعم على التأييد، لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

بيانات تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الصياة:

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم؛ فالفضول كالخيل المسؤمة مثلاً، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفيه بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالأكل والشرب، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر، وإنما ينحصر المهم الضروري، والمهم أيضاً يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته، فلا بدّ من بيان وجه الزهد فيه، والمهمات ستة أمور: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال. والجاه يطلب لأغراض. وهذه الستة من جملتها، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربيع المهلكات، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة.

الأول المطعم: ولا بدّ للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر، فإن من يملك

طعام يومه فلا يقنع به، وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله؛ أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غذائه لعشائه، وهذه هي الدرجة العليا.

الدرجة الثانية: أن يدخر لشهر أو أربعين يومًا.

الدرجة الثالثة: أن يدخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد، ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدًا محال؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدًا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارًا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مد واحد. وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت، ولو الخبز من النخالة، وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه خبز البر غير منخول، فإذا ميز من النخالة وصار حوارى فقد دخل في التمتع وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلًا عن أوائله.

وأما الأدم: فأقله الملح أو البقل والخل، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان، وأعلاه اللحم أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فإن صار دائمًا أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدًا في البطن أصلًا، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائمًا، وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام أو أسبوعًا وما زاد عليه، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربيع المهلكات، ولينظر إلى أحوال رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم.

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار.

قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء<sup>(١)</sup>.

وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم.

(١) حديث عائشة: كان تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار. أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة: «كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته دخان... الحديث» [ابن ماجه: ٤١٤٥، وانظر صحيح ابن ماجه، وقال الألباني: حسن صحيح]. وفي رواية له: ما يوقد فيه بنار. وأحمد: «كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار» [مسلم: ٢٩٧٢، وأحمد: ٢٤٠٤٠]. وفي رواية له: ثلاثة أهلة.

وقال الحسن: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف ويتعلل المخصوف ويلق أصابعه ويأكل على الأرض. ويقول: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكَلُ كَمَا تَأْكُلُ الْعَبِيدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا تَجْلِسُ الْعَبِيدُ» (١).

وقال المسيح عليه السلام: بحق أقول لكم، إنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له، والنوم على المزابل مع الكلاب كثير.

وقال الفضيل: ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر (٢). وكان المسيح يقول: يا بني إسرائيل، عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر، فإنكم لن تقوموا بشكره. وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نعيده.

ولما أتى النبي ﷺ أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل، فوضع القدح من يده وقال: «أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَحْرَمُهُ وَلَكِنْ أَتْرِكُهُ تَوَاضِعًا لِلَّهِ تَعَالَى» (٣).

وأتي عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال: اعزلوا عني حسابها. وقد قال يحيى بن معاذ الرازي: الزاهد الصادق قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلة مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والرب أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله؛ والعبادة حرفته، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى.

**المهم الثاني:** الملابس. وأقل درجاته. ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة. وهو كساء يغطي به. وأوسطه: قميص وقلنسوة ونعلان وأغلاه. أن يكون معه منديل وسراويل. وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد. وشرط الزاهد: أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه. بل يلزمه القعود في البيت. فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار. أما الجنس فأقله المسوح الخشنة وأوسطه الصوف الخشن وأغلاه القطن الغليظ. وأما من حيث الوقت، فأقصاه ما يستر سنة، وأقله ما يبقى يوماً،

(١) حديث الحسن: «كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف ويتعلل المخصوف ويلق أصابعه [مسلم: ٢٠٣٢] ويأكل على الأرض [البخاري: ٥٤١٥]». ويقول «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكَلُ كَمَا تَأْكُلُ الْعَبِيدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا تَجْلِسُ الْعَبِيدُ» [انظر ضعيف الجامع: ٢٠٥٣]. تقدم دون قوله «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ» فإنه ليس من حديث الحسن، إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم. [الحديث دون «ويلق أصابعه»... انظر السلسلة الصحيحة: ٢١٣٠].

(٢) صحيح: حديث: ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر. تقدم [البخاري: ٦٦٨٧، ومسلم: ٢٩٧٠].

(٣) ضعيف جداً: حديث: لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل، فوضع القدح من يده. تقدم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩١٠].

حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه، وأوسطه ما يتماسك عليه شهراً وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد، إلا إذا كان المطلوب خشونته، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه؛ فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به، فإن أمسكه لم يكن زاهداً بل كان محبباً للدنيا، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس: قال أبو بردة: أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُتَبَدِّلَ الَّذِي لَا يُيَالِي مَا لَيْسَ»<sup>(٢)</sup>. وقال عمرو بن الأسود العنسي: لا ألبس مشهوراً أبداً، ولا أنام بليل أبداً على دثار أبداً، ولا أركب على مأثور أبداً، ولا أملأ جوفي من طعام أبداً فقال عمر: من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى عمرو بن الأسود<sup>(٣)</sup>. وفي الخبر: «ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبا»<sup>(٤)</sup>، واشترى رسول الله ﷺ ثوباً بأربعة دراهم<sup>(٥)</sup>. وكانت قيمة ثوبيه عشرة<sup>(٦)</sup>، وكان إزاره أربعة أذرع ونصفاً<sup>(٧)</sup> واشترى سراويل بثلاثة دراهم<sup>(٨)</sup>. وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف<sup>(٩)</sup>، وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان

(١) صحيح: حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت. قبض رسول الله ﷺ في هذين. رواه الشيخان وقد تقدم في آداب المعيشة. [البخاري: ٣١٠٨، ومسلم: ٢٠٨٠].

(٢) ضعيف: حديث «إن الله يحب المتبدل لا ييالي ما ليس». لم أجد له أصلا. [انظر ضعيف الترغيب: ١٢٦١ عن أبي هريرة].

(٣) حديث عمر «من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى هدى عمرو بن الأسود». رواه أحمد بإسناد جيد. [أحمد: ١١٦].

(٤) ضعيف: حديث «ما من عبد لبس ثوب شهرة». رواه ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله «وإن كان عنده حبيبا». [ابن ماجه: ٣٦٠٨، وانظر السلسلة الضعيفة: ٤٦٥٠].

(٥) ضعيف: حديث: اشترى رسول الله ﷺ ثوبا بأربعة دراهم. أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة، قال دخلت يوما السوق مع رسول الله ﷺ فجلس إلى البرازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم... الحديث، وإسناده ضعيف. [النسائي: ٤٩٤٢، وانظر ضعيف النسائي، وفيه «أن النبي ﷺ قطع في قيمة خمسة دراهم»].

(٦) حديث: كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم. لم أجده.

(٧) حديث: كان إزاره أربعة أذرع ونصفا. أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ من رواية عروة بن الزبير مرسلًا: كان رداء رسول الله ﷺ أربعة أذرع، وعرضه ذراعان ونصف... الحديث وفيه ابن لهيعة. وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة: كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر، وفيه محمد بن عمر الواقدي.

(٨) حديث: اشترى سراويل بثلاثة دراهم، المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم. تقدم عند أبي يعلى، وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه، قال الترمذي: حسن صحيح. [حديث سويد عند أبي داود: ٣٣٣٦، والترمذي: ١٣٠٥، والنسائي: ٤٥٩٢، وابن ماجه: ٢٢٢٠، وانظر صحيح أبي داود].

(٩) حديث: كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ، تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحبرة. أما

من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ. وفي الخبر: كان قميص رسول الله ﷺ كأنه قميص زيات<sup>(١)</sup>. ولبس رسول الله ﷺ يوماً واحداً ثوباً سيرا من سندس قيمته مائتا درهم<sup>(٢)</sup> فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله: أنزل عليك هذا من الجنة تعجباً، وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية، فأراد أن يكرمه بلبسه، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به، ثم حرم لبس الحرير والديباج. وكأنه إنما لبسه أولاً تأكيداً للتحريم، كما لبس خاتماً من ذهب يوماً ثم نزعه<sup>(٣)</sup>، فحرم لبسه على الرجال، وكما قال لعائشة في شأن بريرة: «اشترطي لأهلها الولاء»<sup>(٤)</sup>، فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه، وكما أباح المتعة ثلاثاً ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح<sup>(٥)</sup> وقد صلى رسول الله ﷺ في خميصة لها علم، فلما سلم قال: شغلني النظر إلى هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهم واثنوني بأبجانيته<sup>(٦)</sup> يعني كساءه، فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه، فلما سلم قال: «أَعِيدُوا الشُّرَاكَ الخَلْقَ وَأَنْزِعُوا هَذَا الجَدِيدَ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ» وليس خاتماً من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمى به فقال: «شَغَلَنِي هَذَا عَنكُمْ، نَظَرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظَرَةٌ إِلَيْكُمْ»<sup>(٧)</sup>، وكان قد احتذى مرة

لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء: رأيت في حلة حمراء [البخاري: ٥٨٤٨، ومسلم: ٢٣٣٧]. ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حلل اليمن وقال: «رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل» [أبو داود: ٤٠٣٧، وحسنه الألباني]. وفي الصحيحين من حديث عائشة: «أنه ﷺ قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن» [البخاري: ٣١٠٨، ومسلم: ٢٠٨٠]، وتقدم في آداب المعيشة. ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رزمة: «وعليه بردان أخضران» [أبي داود: ٤٢٠٦، والترمذي: ٢٨١٢، والنسائي: ١٥٧٢]، وانظر صحيح أبي داود، سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي. وللبخاري من حديث قدامة الكلابي: «وعليه حلة حبرة» [قال سفيان - أحد الرواة X نراه حبرة] وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف، قاله الذهبي.

(١) ضعيف: حديث: كان قميصه كأنه قميص زيات. أخرجه الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف: كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات. [انظر الشماثل: ٢٦، وضعفه الألباني].

(٢) حديث: لبس يوماً واحداً ثوباً سيرا من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه. [مسلم: ٢٠٧٠ عن جابر، وفيه «أرسل به إلى عمر... وقال: نهاني عنه جبريل... فباعه عمر بألفي درهم»، ولم أقف على إرساله لرجل من المشركين].

(٣) صحيح: حديث: لبس يوماً خاتماً من ذهب ثم نزعه. متفق عليه وقد تقدم. [البخاري: ٦٦٥١، ومسلم: ٢٠٩١ عن ابن عمر].

(٤) صحيح: حديث قال لعائشة في شأن بريرة «اشترطي لأهلها الولاء». متفق عليه من حديثها. [البخاري: ٢١٦٨، ومسلم: ١٥٠٤].

(٥) صحيح: حديث: أباح المتعة ثلاثاً ثم حرمها. أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع. [مسلم: ١٤٠٥].

(٦) صحيح: حديث: صلى رسول الله ﷺ في خميصة لها علم. متفق عليه، وقد تقدم في الصلاة. [البخاري: ٣٧٣، ومسلم: ٥٥٦ عن عائشة].

(٧) صحيح: حديث: لبس خاتماً فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال «شغلني هذا عنكم، نظرة إليه ونظرة إليكم». تقدم. [النسائي: ٥٢٨٩، وانظر السلسلة الصحيحة: ١١٩٢].

نعلين جديدين؛ فأعجبه حسنهما، فخر ساجداً وقال: «أعجبني حُسْنُهُمَا فَتَوَاضَعْتُ لِرَبِّي خَشْيَةً أَنْ يَمُوتَنِي» ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه <sup>(١)</sup>.

وعن سنان بن سعد قال: حبكت لرسول الله ﷺ جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال: «انظروا ما أحسنها وما أليتها» قال: فقام إليه أعرابي فقال يا رسول الله هبها لي، وكان رسول الله إذا سئل شيئاً لم يبخل به، قال: فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى، فمات وهي في المحاكة <sup>(٢)</sup>.

وعن جابر قال دخل رسول الله ﷺ على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: «يا فاطمة؛ تجرعي مَرَاةَ الدُّنْيَا لِنَعِيمِ الأبد، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] <sup>(٣)</sup> وقال ﷺ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِ أُمَّتِي فِيمَا أَنْبَأَنِي الْمَلَأُ الأَعْلَى قَوْمًا يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى، وَيَتَكُونُ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ، مُؤْتِنُهُمْ عَلَى النَّاسِ خَفِيفَةٌ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ثَقِيلَةٌ يَلْبَسُونَ الخُلُقَانَ وَيَتَّبِعُونَ الرُّهْبَانَ؛ أَجْسَامُهُمْ فِي الأَرْضِ وَأَقْفِدَتُهُمْ عِنْدَ العَرْشِ <sup>(٤)</sup>، فهذه كانت سيرة رسول الله ﷺ في الملابس وقد أوصى أمته عامة باتباعه، إذ قال: «مَنْ أَحَبَّنِي فَلَيْسَتْ بَسُنَّتِي» <sup>(٥)</sup>، وقال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُوا عَلَيْهَا بِالتَّوَّاجِدِ» <sup>(٦)</sup>.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وأوصى رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها خاصة وقال: «إِنْ أَرَدْتَ اللُّحُوقَ بِي فَإِيَّاكَ وَمُجَالَسَةَ الأَغْيِيَاءِ وَلَا تَنْزَعِي ثَوْبًا حَتَّى تَرْفَعِيهِ» <sup>(٧)</sup> وعدَّ على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من آدم. واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوباً بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة

(١) حديث: احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه. تقدم.  
(٢) حديث سنان بن سعد: حبكت لرسول الله ﷺ جبة صوف من صوف أنمار. رواه أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله: وأمر أن يحاك له أخرى، فهي عند الطبراني فقط، وفيه زمعة بن صالح ضعيف، ويقع في كثير من نسخ الإحياء: سيار بن سعد وهو غلط.  
(٣) حديث جابر: دخل ﷺ على فاطمة وهي تطحن بالرحى. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف.

(٤) حديث إن من خيار أمتي فيما أتاني العلى الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى، ويكون سرا من خوف عذابه. تقدم، وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه.

(٥) ضعيف: حديث «من أحبني فليستن بسنتي». تقدم في النكاح. [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٥٠٩].

(٦) صحيح: حديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالتواجذ». رواه أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه من حديث العرياض بن سارية. [أبو داود: ٤٦٠٧، والترمذي: ٢٦٧٦، وابن ماجه: ٤٧، وانظر صحيح الترغيب: ٣٧].

(٧) ضعيف جداً حديث قال لعائشة «إن أردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء». أخرجه الترمذي وقال غريب، والحاكم وصححه من حديث عائشة، وقد تقدم. [الترمذي: ١٧٨٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٧٨].

وقطع كميته من الرسغين وقال: الحمد لله الذي كساني هذا من ريشه.

وقال الثوري وغيره: البس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال، وكان يقول: إن الفقير ليمرّ بي وأنا أصلي فأدعه يجوز، ويمرّ بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق. وقال ابن شبرمة: خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته. وقال بعض السلف: البس من الثياب ما يخلطك بالسوق، ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني: الثياب ثلاثة: ثوب لله وهو ما يستر العورة، وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة، وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم: من رق ثوبه رق دينه.

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهماً، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه.

وقال بعض السلف: أول النسك الزي، وفي الخبر: «الْبَدَأَةُ مِنَ الْإِيمَانِ» وفي الخبر: «مَنْ تَرَكَ ثَوْبَ جَمَالٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى وَابْتِغَاءً لِرُؤُوسِهِ كَانَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِرَ لَهُ مِنْ عِبْقَرِيِّ الْجَنَّةِ فِي تَحَاتِّ الْيَأْقُوتِ» وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: قل لأولياي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي.

ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ، فقال: انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق — وكان عليه ثياب رفاق — وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذرّ في بزته، فجعل يتكلم في الزهد، فوضع أبي ذرّ راحته على فيه، وجعل يضرب به، فغضب ابن عامر، فشكاه إلى عمر فقال: أنت صنعت بنفسك، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة. وقال علي كرم الله وجهه: إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقندي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره. ولما عوتب في خشونة لباسه قال: هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدي به المسلم.

ونهى ﷺ عن التمتع وقال: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادًا لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ»<sup>(١)</sup>، ورثي فضالة بن عبيد وهو والي مصر أشعث حافياً فقيل له: أنت الأمير وتفعل هذا؟ فقال: نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاء، وأمرنا أن نحتمي أحياناً<sup>(٢)</sup>. وقال علي لعمر رضي الله عنهما: إن أردت أن تلحق بصاحبك فارفع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع. وقال عمر: اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقيصر، وقال علي كرم الله وجهه: من تزيا بزى قوم

(١) حسن: حديث: نهى عن التمتع وقال «إن لله عبادا ليسوا بالمتنعمين». أخرجه أحمد من حديث معاذ، وقد تقدم. [أحمد: ٢١٦٠٠، وانظر صحيح الترغيب: ٢١٤٦].

(٢) صحيح: حديث فضالة بن عبيد: نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاء، وأمرنا أن نحتمي أحياناً. أخرجه أبو داود بإسناد جيد. [أبو داود: ٤١٦٠، وانظر صحيح أبي داود، والإرفاء: الإكثار من الزينة، ونحتمى: نمشي حفاة].

فهو منهم. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غَدُوا بِالنَّعِيمِ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الكَلَامِ» (١). وقال ﷺ: «إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْتَهُ وَبَيْنَ الكَعْبَيْنِ، وَمَا أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فِي النَّارِ، وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزْرَةَ بَطْرًا» (٢)، وقال أبو سليمان الداراني: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَلْبَسُ الشُّعْرَ مِنْ أُمَّتِي إِلَّا مُرَاءٍ أَوْ أَحْمَقٍ» (٣)، وقال الأوزاعي: لباس الصوف في السفر سنّة، وفي الحضر بدعة، ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف؛ فقال له قتيبة: ما دعاك إلى مدرعة الصوف؟ فسكت فقال: أكلمك ولا تجيني فقال أكره أن أقول زهدًا فأزكي نفسي، أو فقيرًا فأشكور ربي. وقال أبو سليمان: لما اتخذ الله إبراهيم خليلًا أوحى إليه: أن وار عورتك من الأرض، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدًا سوى السراويل؛ فإنه كان يتخذ سراويلين فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: مالك لا تلبس الجيد من الثياب؟ فقال: وما للعبد والثوب الحسن، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدًا. ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي. وقال الحسن لفرقد السبخي: تحسب أن لك فضلًا عن الناس بكسائك، بلغني أنّ أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقًا. وقال يحيى بن معين: رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويفسّلها ويلفّقها ويلبسها، فقلت: إنك تكسي خيرًا من هذا فقال: ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة، فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويكي.

### المهم الثالث: المسكن، وللزهد، فيه أيضًا ثلاث درجات.

**أعلامها:** أن لا يطلب موضعًا خاصًا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة.  
**وأوسطها:** أن يطلب موضعًا خاصًا لنفسه مثل كوخ مبني من سعف أو خص أو ما يشبهه.  
**وأدناها:** أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة؛ فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرج هذا القدر عن آخر درجات الزهد، فإن طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حدّ الزهد

(١) حسن لغيره: حديث «إن من شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام». [انظر صحيح الترمذي: ٢٠٨٧ عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ] رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام... الحديث» [انظر صحيح الترمذي: ٢٠٨٨ عن أبي أمامة] وآخره «وأولئك شرار أمتي» وقد تقدم.

(٢) صحيح: حديث «إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ». رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضًا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي: كلا الحديثين محفوظ. [أبو داود: ٤٠٩٣، ومالك: ١٦٩٩، وابن ماجه: ٣٥٧٣، وانظر صحيح الترمذي: ٢٠٢٩].

(٣) حديث أبي سليمان «لا يلبس الشعر من أمتي إلا مرء أو أحمق». لم أجد له إسنادًا.

في المسكن؛ فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكًا أو مستأجرًا أو مستعارًا، والزهد مدخل في جميع ذلك. وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حدَّ الضرورة، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته، وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى، وأقل الدرجات فيه معلوم، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدًّا، وقد قيل: أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله ﷺ التدريز والتشديد، يعني بالتدريز: كف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلاً والتشديد: هو البنيان بالجص والآجر، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد<sup>(١)</sup>.

وقد جاء في الخبر: «يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية» وأمر رسول الله ﷺ العباس أن يهدم عليه كان قد علا بها<sup>(٢)</sup>. ومرَّ عليه السلام بجنيدة معلاة فقال: «لمن هذه؟» قالوا لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه فأخبر، فذهب فهدمها؛ فمر رسول الله ﷺ بالموضع فلم يرها. فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير<sup>(٣)</sup>.

وقال الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبه على قصبه<sup>(٤)</sup>. وقال النبي ﷺ: «إذا أراد الله بعبده شرًّا أهلَكَ ماله في الماء والطين<sup>(٥)</sup>»، وقال عبد الله بن

(١) حديث: كانت الثياب تشل شلاً، وكانوا يبنون بالسعف والجريد أماثل الثياب من غير كف. فروى الطبراني والحاكم: «أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ». وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة: «فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة... الحديث» [البخاري: ١٨٦٨، ومسلم: ٥٢٤]، ولهما من حديث أبي سعيد: «كان المسجد على عريش فوكف المسجد» [البخاري: ٢٠٢٧، ومسلم: ١١٦٧، وكف: سال من سقفه المطر].

(٢) ضعيف مرسل: حديث: أمر رسول الله ﷺ العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها. رواه الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي ﷺ «اهدمها... الحديث» وهو منقطع. [انظر ضعيف الترغيب: ١١٧٧].

(٣) حسن صحيح: حديث: مر بجنيدة معلاة فقال «لمن هذه؟» قالوا: لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه. أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ: فرأى قبة مشرفة الحديث، والجنيدة القبة. [أبو داود: ٥٢٣٧، وانظر صحيح الترغيب: ١٨٧٤]. (بجنيدة معلاة: قبة مرتفعة)

(٤) ضعيف: حديث الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة. رواه ابن حبان في الثقات، وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسلًا. وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة «من سأل عني أو سره أن ينظر إلي فلينظر إلي أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة... الحديث» وإسناده ضعيف. [انظر ضعيف الترغيب: ١٨٩٦ من عائشة].

(٥) ضعيف: حديث: «إذا أراد الله بعبده شرًّا أهلَكَ ماله في الماء والطين». رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد «خضر له في الطين واللبن حتى يبني». [انظر ضعيف الجامع: ٣٣٦ من جابر، قلت: ولم أره عند أبي داود ولا من عائشة].

عمر: مرّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصصًا، فقال: «ما هذا؟» قلنا خص لنا قد وهى فقال: «أرى الأمر أعجل من ذلك»<sup>(١)</sup>، واتخذ نوح عليه السلام بيتًا من قصب، فقيل له: لو بنيت؟ فقال: هذا كثير لمن يموت.

وقال الحسن: دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه، فقيل له: لو أصلحته؟ فقال: كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ كُفِّفَ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٢)</sup>، وفي الخبر: «كُلُّ نَفَقَةٍ لِنَعْبِدُ يُوجِرُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا أَنْفَقَهُ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ»<sup>(٣)</sup>، وفي قوله تعالى: ﴿يَتْلُكُمُ الَّذِينَ الْأَخْرَجُوا مِنْهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصر: ٨٣] إنه الرئاسة والتطاول في البنيان.

وقال النبي ﷺ: «كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالَ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا أَكُنَّ مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرْدٍ»<sup>(٤)</sup>، وقال النبي ﷺ للرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله: «اتَّسَعَ فِي السَّمَاءِ»<sup>(٥)</sup>، أي في الجنة، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر، فكبّر وقال: ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هاما لفرعون؛ يعني قول فرعون ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَنْهَمُنُّ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصر: ٣٨] يعني به الآجر، ويقال: إن فرعون هو أول من بني له بالجص والآجر، وأول من عمله هاما، ثم تبعهما الجبابرة، وهذا هو الزخرف، ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال: أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف، ثم رأته مبنيا من رهص، ثم رأته الآن مبنيا باللبن، فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص، وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن.

وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه، فإذا رجع أعاده، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن، وكان ارتفاع بناء

(١) صحيح: حديث عبد الله بن عمر: مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصصا لنا قد وهى. رواه أبو داود والترمذي وصححه ابن ماجه. [أبو داود: ٥٢٣٦، والترمذي: ٢٣٣٥، وابن ماجه: ٤١٦٠، وانظر صحيح أبي داود].  
(٢) ضعيف جداً: حديث «من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة أن يحمله». رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه لين وانقطاع. [انظر ضعيف الترغيب: ١١٧٦].

(٣) صحيح: حديث «كل نفقة العبد يؤجر عليهم إلا ما أنفق في الماء والطين». رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت بإسناد جيد بلفظ: «إلا في التراب أو قال في البناء». [ابن ماجه: ٤١٦٣، وانظر صحيح الجامع: ٤٥٦٦].

(٤) حسن صحيح: حديث «كل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد». رواه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ «إلا ما لا» يعني ما لا بد منه. [أبو داود: ٥٢٣٧، وانظر صحيح الترغيب: ١٨٧٤].

(٥) حديث قال للرجل الذي شكى إليه ضيق منزله «اتسع في السماء» قال المصنف: أي في الجنة. رواه أبو داود في المراسيل من اليسع بن المغيرة قال: شكى خالد بن الوليد فذكره، وقد وصله الطبراني فقال عن اليسع بن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد، إلا أنه قال: أرفع إلى السماء وأسأل الله السعة، وفي إسناده لين.

السقف قامة وبسطة. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدي إلى السقف. وقال عمرو بن دينار: إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك: إلى أين يا أفسق الفاسقين؟ وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال: لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر إليه معين عليه. وقال الفضيل: إنني لم أعجب ممن بنى وترك، ولكنني أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين، يصلون إلى قبلتكم ويموتون علي غير دينكم.

**المهم الرابع:** أاث البيت، وللزهد فيه أيضًا درجات:

**أعلاها:** حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنسانًا يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز، وهذا حكم كل أاث، فإنه إنما يراد لمقصود، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة. وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به.

**وأوسطها:** أن يكون له أاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد، كالذي معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف.

**وأعلاها:** أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخميس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول، ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف<sup>(١)</sup>. وقال الفضيل: ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من آدم حشوها ليف<sup>(٢)</sup>.

وروي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط، فجلس، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام، فدمعت عيناه، فقال له النبي ﷺ: «مَا الَّذِي أَبْكَاك يَا ابْنَ الْخَطَابِ؟» قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من

(١) صحيح: حديث عائشة: كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف. رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، وابن ماجه. [أبو داود: ٤١٤٧، والترمذي: ٢٤٦٩، وانظر صحيح أبي داود، والضجاع: الوسادة].

(٢) حديث: ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية [انظر السلسلة الصحيحة: ٢٤٨٤ عن عائشة] ووسادة من آدم حشوها ليف [بنحو الحديث السابق]. رواه الترمذي في الشمائل من حديث حفصة بقصة العبادة، وقد تقدم، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه.

الملك، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط؟ فقال ﷺ: «أَمَا قَرَوْنِي يَا عَمْرُو أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ» قال: بلى يا رسول الله؟ قال: «فذلك كذلك»<sup>(١)</sup>، ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا، فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت هاهنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها، ومعني جرابي أحمل فيه طعامي، ومعني قصعتي أكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي. ومعني مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي، فقال عمر: صدقت رحمك الله، وقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها ستراً وفي يديها قلبين من فضة، فرجع، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله ﷺ فسأله أبو رافع فقال: «مِنْ أَجْلِ السُّتْرِ وَالسُّوَارِيْنَ» فأرسلت بهما بلائاً إلى رسول الله ﷺ، وقالت: قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى، فقال ﷺ: «اذْهَبِي فَبِعِيهِ وَادْفَعِي إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ» فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم، فدخل عليها فقال: «يَا بِي أَنْتِ قَدْ أَحْسَنْتِ»<sup>(٢)</sup>، ورأى رسول الله ﷺ على باب عائشة ستراً فهتكه وقال: «كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا أَرْسَلِيهِ إِلَى آلِ فُلَانٍ»<sup>(٣)</sup>، وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديداً وقد كان ينام على عباءة مثنية؛ فما زال يتقلب ليلته، فلما أصبح قال لها: «أَعْيِدِي الْعَبَاءَةَ وَنَحْيِي هَذَا الْفِرَاشَ عَنِّي قَدْ أَشْهَرَنِي اللَّيْلَةَ»<sup>(٤)</sup>، وكذلك أتته دنائير خمسة أو ستة ليلاً فبيتها، فسهر ليلته

(١) حسن صحيح: حديث دخل عمر على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام. متفق عليه من حديثه، وقد تقدم. [البخاري: ٢٤٦٨، ومسلم: ١٤٧٩ بنحوه، والأدب المفرد: ١١٦٣ وللفظ له].

(٢) ضعيف: حديث: قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على باب منزلها ستراً وفي يديها قلبين من فضة فرجع. لم أره مجموعاً ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة بإسناد جيد: أنه ﷺ جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة لعلي: أنظر فأرجعه... [أبي داود: ٣٧٥٥، وابن ماجه: ٣٣٦٠، وانظر صحيح أبي داود، وحسنه الألباني]. الحديث رواه النسائي من حديث ثوبان بإسناد جيد قال: جاءت ابنة هبيرة إلى النبي ﷺ وفي يدها فتخ من ذهب... الحديث. [النسائي: ٥١٤١، وانظر صحيح الترمذي: ٧٧١، قلت: والحديث بلفظ قريب عند أبي داود: ٤٢١٣ عن ثوبان، وانظر ضعيف أبي داود، وقال الألباني: ضعيف الإسناد منكر]. وفيه: أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب. وفيه «يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار» وأنه خرج ولم يقعد، فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بشمنها عبداً فأعتقه، فلما سمع قال الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار.

(٣) صحيح: حديث: رأى على باب عائشة ستراً فهتكه. أخرجه الترمذي وحسنه، والنسائي في الكبرى من حديثها. [الترمذي: ٢٤٦٨، وانظر صحيح الترمذي].

(٤) صحيح: حديث: فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديداً وقد كان ﷺ ينام على عباءة مثنية. رواه ابن

حتى أخرجه من آخر الليل. قالت عائشة رضي الله عنها: فنام حينئذ حتى سمعت غطيظه ثم قال: «مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ»<sup>(١)</sup> ، وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبًا قط: كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

**المهم الخامس :** المنكح، وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته، وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال: قد حجب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال: كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية.

والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشوم، والمرأة قد تكون شاغلًا عن الله.

وكشف الحق فيه: أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح، فيكون ترك النكاح من الزهد، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب، فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازًا عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد، فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازًا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلاً، فإن الولد مقصود لبقاء نسله، وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات، واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره، إذ لم تكن هي المقصد والمطلب، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازًا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء؛ لأن في ترك ذلك فوات بدنه، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله، فلا يجوز أن يترك النكاح زهدًا في لذته من غير خوف آفة أخرى، وهذا ما عناه سهل لا محالة، ولأجله نكح رسول الله ﷺ. وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ﷺ في أنه لا

حبان في كتاب أخلاق النبي ﷺ من حديثها قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه صوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال «ما هذا... الحديث» وفيه: أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته، وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه، والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشماثل. [انظر السلسلة الصحيحة: ٢٤٨٤].

(١) حديث: أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها، فسهر ليله وفيه «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده». أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه «يا عائشة، ما فعلت بالذهب» [أحمد: ٢٣٧٠٢، وانظر السلسلة الصحيحة: ٢٦٥٣] فجاءت ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول «ما ظن محمد... الحديث» وزاد «أنفقيها» وفي رواية: سبعة أو تسعة دنانير، وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح: «دخل علي رسول الله ﷺ وهو شاهم الوجه، قالت: فحسبت ذلك من وجع، فقلت: يا نبي الله، ما لك شاهم الوجه؟ فقال «من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس أمسينا وهي في خصم الفرائش» [أحمد: ٢٥٩٧٥، وفي رواية «أمسينا ولم ننفقها».

يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن<sup>(١)</sup> فلا معنى لزهده فيهن خذراً من مجرد لذة الوقاع والنظر، ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك.

قال أبو سليمان: الزهد في النساء: أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة.

وقال الجنيد رحمه الله: أحب للمريد المبتدئ أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث والتزوّج. وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهم؛ فإذا ظهر أن لغة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعاً.

**المهم السادس:** ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والجاه: أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه؛ لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يخدمه بخدمته، وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه؛ وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به إلى هاوية لا عمق لها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم، فأما النفع فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجر، وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان، وقدرة الحاجة فيه لا ينضب لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب، والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحل في القلوب ما يدفع به عند الأذى ولو كان بين الكفار، فكيف بين المسلمين، فأما التوهّمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة، إذ من طلب الجاه، أيضاً لم يخل عن أذى في بعض الأحوال فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه فإذا نطلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلاً، واليسير منه داع إلى الكثير، وضرارته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره.

وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه، فإن كان كسوباً فإذا اكتسب حاجة يومه فنبغي أن يترك الكسب، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفته وقام، هذا شرط

(١) حديث: كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن. تقدم في النكاح.

الزهد؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعًا، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوّة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكل ما يفضل عن كفاية سنته، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد، فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله، فلا يكون هذا من الزهاد.

**وقولنا:** إنه خرج من حدّ الزهاد نعني به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل، وقد قال أبو سليمان: لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء: معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه. كل ذلك في عياله، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضًا فيما يخرج عن حدّ الاعتدال، وليتعلم من رسول الله ﷺ: إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين؛ لأنّ ذلك من الزينة لا من الحاجة، فإذا ما مضطرّ الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور، بل الزائد على الحاجة سم قاتل، والمقتصر عن الضرورة دواء نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمًا قاتلًا فهو مضر، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعًا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه، والدواء فرض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره، فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريه إلى ما لا يريه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم، وهو من الفرق الناجية لا محالة. والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط.

ويدل عليه ما روي أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئًا فلم يقرضه، فرجع مهمومًا، فأوحى الله تعالى إليه: لو سألت خليلك لأعطاك، فقال: يا رب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئًا، فأوحى الله تعالى إليه: ليس الحاجة من الدنيا. فإذا قدر الحاجة من الدين، وما وراء ذلك وبال في الآخرة، وهو في الدنيا أيضًا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الدل فيه، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه، وربما يكونون أعداء له، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معيّنًا لهم عليها، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حيّا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصًا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهي حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد

وشماتة الأعداء ومراعاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيداً بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها، ولو ترك محبوباً من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة. فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجازبة من الجانبين، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم بيدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره، فما ظنك بألم يتمكن أولاً من صميم القلب مخصوصاً به لا بطريق السراية إليه من غيره، فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وهوار رب العالمين، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب. قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿المطففين: ١٥-١٦﴾ فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه؟ فنسأل الله تعالى أن يقرّر في أسماعنا ما نفت في روع رسول الله ﷺ، حيث قيل له: أحب من أحببت فإنك مفارقه<sup>(١)</sup> وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر:

كَدُوْدُ كَدُوْدِ الْقَزِّ يَنْسِجُ دَائِمًا وَيَهْلِكُ غَمًا وَسَطًا مَا هُوَ نَاسِجُهُ

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه: رفضوا الدنيا بالكلية، حتى قال الحسن: رأيت سبعين بدرتاً كانوا فيما أحل الله لهم أزهّد منكم فيما حرم الله عليكم. وفي لفظ آخر: كانوا بالبلاء أشدّ فرحاً منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتهم مجانين، ولو رأوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا أشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب، وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول: أخاف أن يفسد على قلبي، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده والذين آسأت حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالذِّبْكَ هُمْ عَنْ مَا بَيْنَنَا وَغَنَفَلُونَ ﴿المونس: ٧﴾ وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَطِغْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿الكهف: ٢٨﴾. وقال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ الْإِلَٰهَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣١﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿النجم: ٢٩-٣٠﴾ فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام: احملني معك في سياحتك، فقال: أخرج مالك والحقني.

(١) حسن لغيره: حديث: نفت في روعه أحب من أحببت فإنك مفارقه. تقدم. [انظر صحيح الترمذي: ٦٢٧].

فقال : لا أستطيع، فقال عيسى عليه السلام: بعجب يدخل الغني الجنة - أو قال بشدة - .  
وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات:  
ملكبان بالمشرق وملكبان بالمغرب، يقول أحدهم بالمشرق: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر  
أقصر، ويقول الآخر: اللهم أعط منفقًا خلفًا وأعط ممسكًا تلفًا. ويقول اللذان بالمغرب،  
أحدهما: لدوا للموت وابنوا للخراب. ويقول الآخر: كلوا وتمتعوا بطول الحساب.

### بيانه علامات الزهد:

اعلم أنه قد ظنَّ أن تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإنَّ ترك المال وإظهار الخشونة سهل  
على من أحب المدح بالزهد، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من  
الطعام ولازموا ديرًا لا باب له، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له،  
فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة، بل لا يعدُّ من الزهد في المال والجاه جميعًا حتى يكفل  
الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جمال الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة  
والثياب الرفيعة، كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال: وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر  
من اللباس يمؤون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم، لئلا ينظر إليهم بالعين التي  
ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم  
وأنهم على السنة، وأن الأشياء داخله إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعله غيرهم. هنا  
إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضائق، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية  
أسرارهم ولا بتهديب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوا حالاً لهم،  
فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى. فهذا كله كلام الخواص رحمه الله؛ فإذا معرفة الزهد  
أمر مشكل، بل حال الزهد على الزهد مشكل.

وينبغي أن يعرف في باطنه على ثلاث علامات:

العلامة الأولى: أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا  
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك: وهو  
أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده.

العلامة الثانية: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأول علامة الزهد في المال والثاني  
علامة الزهد في الجاه.

العلامة الثالثة: أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو  
القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في  
القدح، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل  
بغيره، ولذلك قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضى بهم الزهد؟ فقال: إلى الأُنس بالله؛ فأما الأُنس

بالدنيا وبالله فلا يجتمعان.

وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعًا وعمل لهما، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي.

وقال أبو سليمان: من شغل بنفسه شغل عن الناس - وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه - وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بدّ وأن يكون في أحد هذين المقامين، ومقامه الأوّل أن يشغل نفسه بنفسه، وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم والوجود والعدم، ولا يستدلّ بإمساكه قليلاً من المال على فقد زهده أصلاً.

قال ابن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان: أكان داود الطائي زاهدًا؟ قال: نعم. قلت: قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارًا فأنفقها في عشرين سنة، فكيف كان زاهدًا وهو يمسك الدنانير؟ فقال: أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد، وأراد بالحقيقة الغاية، فإنّ الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس. ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئًا مع القدرة عليه خوفًا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه، وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجرًا كما فعله المسيح عليه السلام، فنسأل الله تعالى أن يهزقنا من مبادئه نصيبًا وإن قلّ، فإن أمثالنا لا يستجريء على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه. وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاضمه شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتمادًا على الجود المجاوز لكل كمال.

فإذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم، وذلك لغلبة الأنس بالله. ويتفرّع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة: مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها.

وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول: أ بني رباطًا أو أعمر مسجدًا.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد: السخاء بالموجود.

وقال ابن خفيف: علامته وجود الراحة في الخروج من الملك. وقال أيضًا: الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف.

وقال أبو سليمان: الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفًا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم.

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله: علامة الزهد قصر الأمل. وقال سري: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه. ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه.

وقال النصرآبادي: الزاهد غريب في الدنيا، والعارف غريب في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد ثلاث: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رئاسة. وقال أيضًا: الزاهد لله يسعطك الخل والخردل، والعارف يشمك المسك والعنبر. وقال

له رجل: متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضًا: الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخّم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها. وقال السري: مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم أبلغه ولم أطقه.

**وقال الفضيل رحمه الله:** جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

\* \* \*